

(مغرب : 1955-1960)

البادية المغربية في العصر الحديث

في شروط التبعية التي تتميز باستيلاء الاستعمار على المرافق الحيوية في الاقتصاد كالصناعة والمال والانتاج المعدني، في هذه الشروط يتخلى الاستعمار عن البادية لحلفائه المحليين غالبا لتشكيل مجال استغلالهم، غير أن هذه الطبقات الطفيلية تتميز برغبة جامحة في الاثراء بشكل لا يتناسب مع امكانيات محراث عمره عشرة آلاف سنة فتجد نفسها مضطرة من أجل إشباع هذه الرغبة لأن تفرس اظافرها في جسم البادية. وتقوم عملية التبادل اللامتكافئ في التجارة الدولية بين الدول الاستعمارية والمستعمرات القديمة لتنعكس بدورها على الوضعية بشكل عميق.

إن البادية في العالم الثالث، الذي تشكل فيه المصدر الرئيسي، للانتاج وتضم القسم الاعظم من السكان، تتحول في ظل التبعية الاستعمارية الى متنفس للرأسمالية الدولية تلتبس فيه حلولا لأزماتها المتفاقمة، والى مجال للطبقات الطفيلية للاثراء الفاحش، وهذا ما يفسر صور القهر والفاقة والجهل... التي تكاد تكون ظاهرة ملازمة لهذه البوادي، كنتيجة منطقية لإوضاع التبعية.

ولا تشذ بادية المغرب عن هذه القاعدة العامة. إذ لم تقف الاوضاع المادية في البادية عند الحال الذي كانت عليه قبل 1956، بل مالت، على النقيض، نحو الانحدار والتدهور أكثر، بحيث لا يشكل الانخفاض المستمر للقوة الشرائية للفلاحين، وحرمانهم من الخدمات العامة كالتهليم والتطبيب والكهرباء... الخ غير مؤشرات دالة. إن مصدر الاوضاع السيئة في البادية ليس هيمنة الاستعمار الجديد على مقدرات الامة فقط، بل راجع ايضا وبالاساس الى مشاركة قوى اجتماعية طفيلية للاستعمار في عملية النهب المنهج. إن الاستعمار الذي كان يشاطره الاقطاع وحده في استغلال البادية قبل (56)، اضاف بعدها حليفا جديداً كان قبل مبعداً بشكل عام هو البورجوازية. ومنذ ذلك الحين شكل هذا الثلاثي ترسانة لاستغلال واضطهاد البادية.

إن تحالف قوى الاستغلال ليس بالامر الجديد في المرحلة الجديدة، فقد تحالف من قبل وعلى امتداد المرحلة الاستعمارية كل من الاستعمار والاقطاع من أجل تحويل البادية الى بُورَة للاستغلال. لقد استمد هذا التحالف مبرر وجوده من توافق مصالح الاستعمار والمخزن تاريخيا، فقد أبقى الاستعمار حليفه على بعض الاراضي التي لم تكن له رغبة فيها، بالإضافة الى أن الاستعمار كان في حاجة الى حليف يناصره على ضرب الثورة في البادية، فجسد الاقطاع

في ذاته بعدائه للامة مواصفات هذا الحليف وقد انعكس هذا التحالف المصلحي في البنية الفوقية للطرفين التي اتخذت صورة تعايش بين جهازيهما الاداري في البادية. اما كيف استطاع الطرفان حل التناقض بينهما باستمرار والحيلولة دون أن يؤدي الى التفكك حتى سنة (56) فهذا موضوع يحتاج الى دراسة مستقلة، ومع ذلك يمكن الاشارة بصفة عامة الى الدور الخاص الذي لعبته الحركات الشعبية التي كانت مهدد مصالح الطرفين معا، في الحفاظ للتحالف على تماسكه النسبي على امتداد المرحلة الاستعمارية.

ولم يكلف التحالف نفسه مشقة تبرير هذا الازدواج الغريب، بحيث كان واضحا ان البادية تابعة لادارتين، وعليها أن تخضع بالتالي لاستغلال مضاعف، على العكس من المدينة التي كان تناسب هذا الازدواج فيها يميل بصورة قوية لصالح الادارة الاستعمارية. هل كانت المرحلة الاستعمارية شيئا آخر غير ترآكُم للاستغلال؟ وهل تعني المرحلة الجديدة غير زيادة في هذا الترآكُم؟ لقد عدلت المرحلة الجديدة من صيغة واطراف تحالف الامس، فبدل التحالف القديم الذي اتخذت منه البيورجوازية، بسبب اقصائها من اقتسام الغنيمة، موقف المعارضة، تشكل تحالف جديد يُفرد لها مكانا، ويعترف لها بنصيب في العملية الاستغلالية، وهذا هو السبب في مؤامرة الصمت التي ضريت على ما جرى في البادية (سنوات 56 - 59) وهو ما يفسر لنا حرص الاطراف على تجميد تناقضاتهم فيها. وتجدر الاشارة الى أن التحالف لم يكن بإمكانه أن يطلق يده في البادية بمثل تلك الحرية، لولا نجاحه في تكميم اقواه الطبقة العاملة في المدينة، وضمان حيادها بفضل ارضاعات مادية تسلمهم في تثبيت الوضع الاستعماري الجديد، فضلا عن أن المخزن لم يخسر مقابلها شيئا، فلنكي يتم احكام الطوق على البادية لابد من مهانة الطبقة العاملة وإلا فقد كان بمقدور العمال أن يفسدوا أي خطوة عرّضوا الى عزلم عن حلقائهم الموضوعيين، اي الفلاحين، لقد كشفت قيادة الاتحاد المغربي للشغل (أ.م.ش)، بقبولها مبدأ المساومة مع التحالف، عن مواقف مغرقة في الانتهازية وعن حنكة لا تضاهى في تضليل الطبقة العاملة مؤقتا، بتحويل انظار العمال عن قضاياهم الوطنية. والمصيرية.

هكذا جاءت المرحلة الجديدة محمية لامال الجماهير، لا لترفع كابوس الاستعمال عن كاهلها وانما على العكس من ذلك، لتوسعه وتمنجه وتزيد من وطاته.

بعد أن احتلت الجيوش الاستعمارية، منذ أوائل القرن بعض المدن الشاطئية والمتاخمة واتخذتها مراكز لتسيير عملياتها العسكرية، بدأت تتحرك داخليا لتحقيق مزيد من التوسع فاصطدمت بمقاومة البوادي، ورغم ضعف وسائل المقاومة لدى الفلاحين فقد هبوا للتصدي للهجوم العسكري الاستعماري بروح معنوية عالية، واذا كان الاستعمار لم يجد المقاومة الحازمة من قبل بعض المدن التي أخضعت بسرعة فانه وجد في البادية الصخرية التي لا تلين: تضامن وتكاتف شعبي لمقاومة الغزو وروح نضالية عالية. لذلك عمد الاستعمار الى استخدام كل

الاساليب الوحشية ضدها ليحطم صمودها، لكن بقدر ما تصاعدت شراسة الهجمة بقدر ما ازدادت مقاومة الفلاحين صلابة، ولم تكن الحملة لتخضع منقطة الا و تجد نفسها امام مقاومة أشد وأعتف في المنطقة التالية، وهكذا خاضت البادية حرب استنزاف ضدا على العدو فرضت عليه دفع ثمن باهض مقابل كل تقدم صغير يُحرزه، ونبهت الشعب الفرنسي الى ما تلحقه المغامرة العسكرية الفرنسية في المغرب من أضرار بالفائض الاقتصادي المستخلص من عرق الكادحين الفرنسيين، ولم تكن هزيمة حملة الاطلس في ختيفرة غير واحدة من الانتصارات التي أثبتت قدرة جماهير الفلاحين على الحاق الهزيمة بالعدو ولو بوسائل دفاعية بسيطة ان لم تكن بدائية. اما الحملة الاسبانية على الشمال فقد وقفت عاجزة لانطبق حراكا امام فلاحى منطقة الريف — اجباله، ولم تحصد من محاولاتها اليائسة لاحتضاع المنطقة غير الهزائم التي كان لها صدى دولي، فضلا عن تأثيرها المباشر في تفجير الوضع الداخلي باسبانيا، ولولا أن هرع الاستعمار الفرنسي لنجدة حليفه من المأزق الحرج لرجح ميزان القوى نهائيا في المغرب كله لصالح الثورة، لقد فُرض على فلاحى الشمال أن يخوضوا حربا غير متكافئة تحالفت فيها جيوش امبرياليين و استعملت فيها كل ادوات الدمار التي اثبتت للاستعمار أن الطريق الى البادية ليست سهلة. ولم تسكن المدافع في الريف لبضع سنوات الا لتتجه الى الجنوب حيث شنت جبال الاطلس الصغير والصحراء حرب مقاومة شعبية استطاعت أن تجمد آلة الحرب الاستعمارية لفترة غير وجيزة، ويسقط جبل صغرو آخر قلعة للمقاومة في سنة 1934، تمكن الاستعمار في الاخير من أن يخضع البلاد ولكن بعد أن كلفته الحرب أزيد من ربع قرن لم ينعم فيها بطعم الراحة.

وبعد (1934) دخلت البادية في مرحلة من الهدوء النسبي جاء معها دور المدن التي تميزت ببروز ونمو «الحركة الوطنية» التي قادتها البورجوازية المغربية، وفي الوقت الذي استنفذت فيه مرحلة الاحتجاج المدنية كل امكانياتها، وطرح اختيار المقاومة المسلحة من جديد، بدأت تتشكل خلايا للمقاومة من العناصر القاعدية لحزب الاستقلال وباستقلال عنه، ولم تسر المقاومة في هذا الدرب طويلا حتى أحست بالاختناق، وأصبح واضحا انها لن تستطيع الاستمرار بدون مشاركة البادية. لقد شكلت البادية الذراع اليمنى بالنسبة للمدينة، فكما أنه لا يمكن تصور محارب بدراع واحدة كذلك لم يكن من الممكن للمدينة أن تستمر بدون ذراعها الثانية (أي البادية)، فقررت المقاومة فتح جبهة البادية وذلك بنقل بعض خلاياها إليها لتأسيس جيش التحرير، ومنذ (1953)، وبعد تأسيس جيش التحرير، شكلت البادية حجر الزاوية في المقاومة. وهكذا وجد نضال المدينة نفسه، لكي يخرج من الطوق مضطرا للانفتاح على البادية وربط مصيره بها، وطيلة هذه الفترة أبدت جماهير البادية استعدادها للسير في طريق التحرير حتى النهاية، وتعمل كل التضحيات التي يفرضها هذا الاختيار، وقد قدمت نماذج رائعة من التضحية، ليست احداث وادي زم (1955) التي سقط فيها (5000) خمسة آلاف شهيد غير واحد منها.

أخذت الازمة العامة التي بات النظام الاستعماري يتخبط فيها منذ نهاية الحرب الكبرى الثانية، تتفاقم بصورة لم يسبق لها مثيل، نتيجة النهوض الجماهيري العارم الذي بدأ يجتاح المستعمرات ويهدد الوجود الاستعماري في الصميم، ونتيجة امتداد التناقض داخل الامبرياليات بين اتجاهين في الاستعمار القديم والجديد.

أما في المغرب فقد اخذت الازمة تنعكس على النظام الاستعماري في صورة انحلال أصاب سلطتي الاستعمار والاقطاع، وبدأت اعراض هذا الانحلال تتفاقم بالخصوص مع السنوات الأولى من الخمسينيات، ومقابل هذا الكسوف في السلطة الاستعمارية وبموازاة جدلية معه انبثقت في الجهة الأخرى براعم سلطة جديدة أخذت تثنق طريقها كبديل للسلطة الاقطاعية من خلال زحزحتها اياها، وارغامها على التراجع. لقد بدأت السلطة الاستعمارية تنحسر أمام المد الشعبي فأخذت النواة الجديدة تبني سلطتها مكان السلطة القديمة مستفيدة من: الطاقات الثورية للجماهير الكادحة التي عقدت العزم على التخلص من النير الاستعماري، ومن تناقضات الامبرياليات، وعلى النقيض من وضعية الاستعمار المتأزمة، أصبح عامل الزمن يلعب دوراً إيجابياً لا في تصليب الحركة وتنمية خبرتها وإكسابها مزيداً من الفهم الصحيح للواقع الذي تتحرك على أرضه فحسب، بل وفي تشكيل ملامح المستقبل كذلك. لكن الاستعمار لم يجهل الحركة، ولم يدعها تستفيد من تحويل عنصر الزمن الى سلاح تستخدمه ضده، فبادر الى سرقة من يدها في الوقت الذي كانت في أمس الحاجة اليه، وفاجأها بمناورة (1956) التي كان لها وقع الصاعقة، فارتكبت مسيرتها ووضعها أمام تحديات لم تكن قد تهيأت بعد لمواجهةها وعجزت عن استيعابها. والرد عليها، فائر ذلك بشكل سلبي على ثمرها، وهكذا اجهضت المقاومة المسلحة واجضبت معها الحركة الشعبية التي كانت تشهد نمواً متعاضداً، ومنحت مناورة (1956) فرصة للاستعمار ولخليفه لالتقاط أنفاسهما والانتعاش من جديد وهيأت للاستعمار شروط اعادة ترتيب اوضاعه للدخول في شوط جديد، بعد أن غير اساليب سيطرته وطرق استغلاله بشكل كبير، وفتح بذلك عهداً جديداً من الهيمنة والتحكم ملقياً على كاهل الامة تحديات ومهمات جديدة.

ويجب الا ننسى ان المناورة لم تكن لتكتسي كل مظاهر الضخامة تلك، لولا تواطؤ اطراف متعددة من استعمار وبورجوازية واقطاع على نسج خيوطها. ان البورجوازية التي قادت بالامس حركة لفضال الوطني في المدن خاصة ضدا على الاستعمار طيلة عقود من الزمن قد ارتدت عن مواضعها الوطنية واجتازت من أجل تحقيق مصالحها طريق المساومة مع الاستعمار، وشكلت منذ ذلك الوقت طرفاً في التحالف الثلاثي الرجعي للمشاركة في اقتسام الغنيمة. ولا يمكن لهذه الردة الوطنية أن تجد تفسيرها خارج الواقع الاقتصادي الاجتماعي الذي استمدت منه موقف المعارضة للاستعمار، وتستمد منه اليوم موقف المهادنة والمساومة، لقد كانت مصلحتها لا تجد تحقيقها كاملاً في المشروع الاستعماري القديم ولذلك ظلت تمارس عليه

صنوف الضغط ليفسح لها مزيداً من المجال، أما اليوم فإن المشروع الاستعماري الجديد أصبح قادراً نسبياً على استيعاب هذه المصلحة وإزالة بعض الغبن الذي لحقها، بالأخص وأنها بمسيرتها للمد الشعبي ستخسر كل شيء، وشبهه بهذا موقف البورجوازية الصغيرة في ألمانيا (1849) حيث يصفها انجلز بقوله «ألم يكن من المنتظر منهم أن يخاطروا بـ «الحياة والملكية» كما كانوا يقولون لاجل قضية الانتفاضة؟ ألم يكونوا مجبرين على تسلم مواقع مسؤولة في الانتفاضة والتي وفقاً لها خاطروا في حال الهزيمة بخسارة رأسهم؟ وفي حال الانتصار، ألم يكونوا واثقين من أنهم سيطردون من مراكزهم في الحال وأن يشاهدوا كامل سياستهم تحطم على يد البروليتاريين المنتصرين الذين كانوا يشكلون القسم الأساسي من جيشهم المقاتل؟ وهكذا لوقوعها بين نارين، لم تستطيع البورجوازية الصغيرة أن تستخدم سلطتها الا لتترك الأمور تسير نحو الأسوأ، وهذا ما أفقدها حظها الضئيل في النجاح، ودمر الانتفاضة كلياً، لقد كان تكتيكها، أو بالأحرى افتقارها الى التكتيك في كل مكان مماثلاً لنفسه ولذا فان انتفاضة مايو 1849 في كل أنحاء البلاد قد فصلت على نفس النموذج» (الثورة والثورة المضادة ص 150) لذلك لم تتردد البورجوازية امام التبدل الطارئ، في أن تغير مواقفها لتتسجم مع المصلحة الجديدة حيث لم يعد ما يبرر استمرار موقف الامس.

إن تراجع البورجوازية هذا عموماً لم يكن ليكتسي ذلك الحجم الضخم، ويؤثر تأثيراً سلبياً خاطئاً على جيش التحرير لو توفر لهذه الحركة الاطار والتوجيه الصحيحان. لقد شكل جيش التحرير طبعة هذه الحركة، وجسد منذ البدء في اختياره للكفاح المسلح، الاسلوب الثوري الصحيح الكفيل بالسير بالامة على درب تحررها، واعطت تجربته، رغم قصر عمرها، فرصة للامة، للاطلاع على شكل ومضمون تحررها بعيداً عن الادعاءات البورجوازية في امكانية ارغام الاستعمار على التراجع باستعمال اساليب الضغط والاحتجاج فقط، كاشفة باللموس زيف هذه الادعاءات. لكن مناورة (56) جاءت لتجهض هذه الحركة قبل أن يشتد عودها. لقد انتبه الاستعمار الى التهديد الذي تشكله على مصالحه فأسرع بطيخ المعاهدة، وتشديد صرح التحالف البورجوازي الاقطاعي الرجعي تحت رعايته لينهض بدور الحارس لمصالحه، وليشكل ايضاً وبالاساس سداً في وجه جيش التحرير والمقاومة، يبعد عنه خطر الاجتثاث الذي أصبح يهدده مع بروز تنامي هذه الحركة في زمن وجيز جداً. لقد جسدت الحفاظ على السلطة، واعادة بنائها حتى تتسجم مع شروط الوضع الجديد، التناقض الرئيس الذي كان يعيشه التحالف طبيلة الثلاث سنوات الاولى من الاستقلال.

إن السممة البارزة التي طبعت الاوضاع في البداية منذ 1956، هي ازدواج السلطة: فقد استطاعت الامة قبل (56) تنمية وتوسيع سلطتها حتى جاءت دولة الاستعمار الجديد لتعلن الحرب على هذه السلطة مستهدفة تصفيتها. لقد كان التناقض إذا بين شكلين للسلطة، الشكل الذي مارسته الجماهير وتشبثت به وهو الادارة الذاتية، والشكل المركزي التسلطي،

للدولة الجديدة، وقد كان التناقض الرئيسي والمتحرك طيلة الثلاث سنوات التي كان فيها ميزان القوى بين الدولة والجماهير في حالة مد وجزر قبل أن يحسم نهائيا لصالح الدولة، أما التناقضات الأخرى التي طفحت بها البادية والتي كانت تدفع بها وتساهم في تعميق التناقض الرئيسي فيها فهي:

1 — مشكلة الملكية:

ارتبطت مشكلة الملكية في البادية تاريخيا، بالاستعمار الذي لم يكن دخوله يعني غير دخول علاقات ملكية جديدة، وفعلا انخرطت العلاقات الوافدة في صراع ضد العلاقات القديمة، هذه العلاقات التي كانت تعتمد أساسا على التملك الجماعي وإلى جانبها بعض أشكال التملك الفردي الهامشية. ونظرا إلى أن العلاقات الجديدة هي وليدة الشروط الرأسمالية المتقدمة فقد كان انتصارها أمرا حتميا على علاقات تستند إلى وسائل إنتاج تنتمي إلى عصور ما قبل الرأسمالية رغم جماعتها التي كانت تشكل لها عنصر قوة، ولقد نتج عن هذا الانتصار تفتيت علاقات التملك الجماعي التي ظلت ترمز إلى كل معاني التضامن والتعاون بين جماهير البادية، وترتب عن هذا التفتيت توسع نمطين من الملكية:

أ — الملكية الفردية الرأسمالية التي استفاد منها المعمرون أساسا في استيلائهم على الأراضي الخصبة، وبنائهم للمزارع الحديثة بها المعتمدة على الوسائل الإنتاجية المتقدمة، ولقد بلغ مقدار الأراضي التي كانت من حوزة هؤلاء والدولة أكثر من مليون هكتار.

ب — الملكية الاقطاعية التي عرفت توسعا في إطار التحالف الاستعماري الاقطاعي حيث لم يجد الاستعمار حرجا في أن يكون بعض ثمن هذا التحالف منهدأ من ذلك التوسع، خاصة إذا تعلق الأمر بالأراضي التي لم يكن يرغب فيها الاستعمار، بل على العكس يمكن أن يفيد هذا التوسع سياسيا لأنه يربط قسما من الجماهير بارادة المخزن، ويجعلها تحت مراقبته الدائمة. أما لماذا انصب اهتمام الاستعمار على الأرض أساسا قبل غيرها، ولماذا شغله مشكل الملكية حتى درجة اصداره مجموعة من أولى ما شرع من قوانين في فترات متفاوتة تستهدف جميعا إلغاء علاقة التملك الجماعي، واقامة علاقات التملك الفردي على انقاضها؟ فهذا راجع إلى شروط المرحلة التي من أهم مميزاتها: استمرار ارتباط الرأسمالية بالأرض كمصدر أساس لتجميع رأسمال، إذ استمرت الفلاحة تلعب هذا الدور في وقت لم تكن الصناعة قد شهدت بعد انطلاقتها في المغرب. وفي مرحلة الاستعمار الأولى كان الاتجاه إلى الانتاج الفلاحي والمعدني هو الأساس، وحتى عندما بدأ الاستعمار يتجه نحو الصناعة بشكل قوى قبيل الحرب الكبرى الثانية، فإن الأرض احتفظت مع ذلك بمكانتها في المشروع الاستراتيجي، وقد كان توسع ملكية المعمرين دائما على حساب مالكيها من المواطنين الذين تحولوا إلى عمال زراعيين أو إلى بروليتاريا تباع قوة عملها في المدن. وورثت مرحلة الاستعمار الجديد هذه

الوضعية بكل سلباتها واستمر مشكل الملكية قائماً، وضيف الى المعمرين القدامى، معمرين جديداً استعملوا نفس اساليب اساتذتهم للاستحواذ على اراضي الفلاحين، او عبر طريق التفويت.

2 - المغرب النافع وغير النافع:

من النادر أن نجد بلداً رأساليا تخضع عملية التطور في أقاليمه المختلفة لنغمة واحدة، بل إن القانون الذي يحكم هذه المجتمعات هو التطور اللامتوازن، تعرف فيه بعض الاقاليم نمواً سريعاً بل ومذهلاً في بعض الاحيان، في حين تتطور باقي الاقاليم ببطء وتعتز في الغالب. إن هذه الوضعية الشاذة تطرح المفهوم الذي ياخذهُ الوطن عند الرأسمالية، انها لا ترى فيه الا تلك الاقاليم المحظوظة التي تمكنها بسبب غناها من تنمية ارباحها، اما الاجزاء الفقيرة التي لا تتوفر على امكانيات مادية وفيرة، فان نصيبها من الرأسمالية يكون هو الابهمال، ولا تشكل في نظر الرأسمالي - مادامت كذلك - جزءاً من «الوطن». إن الرأسمالي حين يتكلم عن (الوطن) لا يقصد في الحقيقة الا اجزاء معينة منه، هي تلك التي تستطيع، اذا استثمر فيها رأسماله، أن تدر عليه ارباحاً طائلة، وبذلك يتحول التقدم الذي تعرفه بعض الاقاليم في ظل الرأسمالية الى تفهقر في الاقاليم الاخرى،

اما الطبقة العاملة، ومعها بقية الشعب، فان الوطن عندها لابناله هذا التمزيق، بل ينظر اليه كوحدة لاتجزأ، بعيداً عن أي تقييم ربحي ضيق يؤدي الى تمييز الأقاليم الغنية عن احتيا الفقيرة. فهذا التناقض يجد حله الصحيح في البرنامج العمالي الذي يحرص على أن تسير عملية التنمية بشكل متكافئ، يلعب فيها الاقليم الغني دوراً في الاسراع بتنمية الفقير، وهذه العظرة التكاملية هي التي تعطي لعملية التنمية الاشتراكية بعدها الاجتماعي الذي تفتقده في المشروع الاستعماري.

أما في مجتمع مستعمر، فان قانون التطور اللامتكافئ يصبح أكثر شفافية، ذلك أن الرأسمالي في وطنه القومي يحاول أن يحقق على الاقل، نسبة ولو ضئيلة من التكافؤ، اما وهو في بلد «غير متمدن» فلا يهجم الا نهب خيراتهِ. ففي مناطق غنية بالمعادن مثلاً يهتم الاستعمار ببناء الطرق والمرافئ... وادخال الكهرباء واحداث المياهي... الخ لتسهيل عملية الاستغلال، أما في الاقاليم الفقيرة فلا يحدث شيء من هذا اطلاقاً، ولا يهتم الاستعمار بتغيير أي شيء من واقعها، لقد ظلت، مثلاً، مناطق جبلية في المغرب مجهولة من طرف الاستعمار، ويمكن التمثيل على التفاوت الخيالي الذي حدثته المرحلة الاستعمارية بين مدن وسهول الغرب من جهة والمناطق الجنوبية أو الشمالية من ناحية أخرى، ففيما كانت عملية البناء والتشييد تجري في المنطقة الاولى، ظلت مرافق الحياة في الجنوب والشمال على ما كانت عليه من أساليب بدائية في الانتاج والتبادل والنقل، ولقد لعبت هذه الاقاليم الفقيرة دوراً طليعياً في النضال الوطني، ولم

تتوقف لحظة عن مناهضة الاستعمار، وحين انطلقت حركة جيش التحرير شكلت هذه المناطق الرافد الأساسي لها، ولما حلت المرحلة الاستعمارية الجديدة ازدادت ملامح التفاوت بروزاً، فمع التوسع المائل والمنهج الذي ميز المرحلة في نهب خيرات البلاد المعدنية منها والزراعية.. ازدادت بعض الاقاليم غنى ودينامية، أو ظهرت الى الوجود مراكز مدنية جديدة، ولا أدل على ذلك أكثر من الدور الاستقطابي الاستحواذي الذي أصبحت تلعبه الدار البيضاء في العملية الانتاجية لمجموع البلاد، بينما بقيت مناطق بأمتها مبعدة لا تلعب في هذه العملية غير دور هامشي. لقد كانت النتائج الأولى لهذه الوضعية عقب الاستقلال مباشرة، تلك الهبات الشعبية التي كانت الاقاليم الاقفر مسرحاً لها، فقد نارت منطقة والماس في الاطلس المتوسط والتحققت بها مناطق من تازة واستمرت انتفاضتهما دون أن تقوى الدولة على قمعها وفي نفس الوقت، أي في أواخر (1958) اندلعت حركة الريف بكل زخمها الشعبي، ولم يهدأ إقليم وجدة لحظة، الشيء الذي كان يثير قلق الاستعمار. وثار القائد البشير في بني ملال. أما في الجنوب فقد أعلنت الريش العصيان، واستغل عدى أوبيهي الشرط الثوري عند سكان ورزازات في حركته المسرحية واعتصم الشافعي بالجبال قرب مراكش.

هل يمكن القول إن التناقض بين المغرب النافع وغير النافع قد امتحن بعد أن استقرت الأوضاع نسبياً لصالح السلطة؟ هذا ما يمكن أن يوحي به ظاهر الأشياء. أما حقيقة الامر فهي أن التفاوت الصارخ الذي أمسى يميز أوضاع الاقاليم، والناجم عن عملية النهب المفرط لخيرات البلاد، والتمييز بين الاقاليم، لن يتوقف عن ممارسة فعله، بل سيزيد الوضع تأزماً، وإذا ما أصبحت انتفاضات السنوات الأولى من الاستقلال غير ممكنة التكرار بنفس الملامح في شروط الوضع الراهن، فإن هذه الاقاليم المنتفضة بالامس، أصبحت تشكل اليوم رأس الرمح من واقع الصراع الطبقي الذي تخوضه جماهير المغرب ضد شروط التبعية الاستعمارية.

3 — شمال وجنوب :

إن من جملة المعضلات التي خلفتها المرحلة الاستعمارية، معضلة التفاوت في درجة النمو الاقتصادي بين الشمال والجنوب، ومهما حاولنا التماس مبرر لهذا التفاوت من غنى الامكانيات الطبيعية التي تميز الجنوب عن الشمال، فإن هذا المبرر يبقى جزئياً رغم وجود ما يرجحه في الواقع الموضوعي، ذلك لأن تفاقم التفاوت، بالاساس، يرجع إلى أسباب تاريخية جعلت المنطقتين منفصلان عن بعضهما وترتبط كل منهما بإحدى الدولتين الاستعماريتين : فرنسا واسبانيا حوالي نصف قرن.

لقد كان المغرب مطمع عدد من الدول الاستعمارية، حلت تناقضاتها فيما بعد بانتهاج المغرب نصيباً لفرنسا واسبانيا، ولما كانت العلاقات اللامتساوية الناجمة عن التطور اللامتكافي هي السائدة بين الرأسماليات فيما بينها، فقد كان طبيعياً أن تستأثر فرنسا بالمنطقة الخصبة على حساب اسبانيا الضعيفة. غير أن الذي يحدد النتائج السلبية لهذه (اللامساواة) هو المغرب، فقد عجز الاستعمار الاسباني عن إحداث أي تحول يذكر في البيئات الاقتصادية

والاجتماعية للمنطقة، نظرا لتخلقة التكنولوجيا وضعف امكانياته المادية، وبدل أن يشكل دخوله عنصر صرح لهذه البنيات وللعلاقات القائمة عليها وجد نفسه مرغما على الإبقاء عليها والتعايش معها في أساسياتها ومن ثم فليس من قبيل المصادفة أن يشكل الشمال الفقير المركز الاساسي لتواجد جيش التحرير، فبالإضافة إلى الدور البارز الذي لعبته تناقضات الامبرياليات في الاسراع بنمو وتعاظم الكفاح الوطني، شكلت أوضاع المنطقة مناخاً ملائماً هيأها لتحمل موقعا طليعيا في الكفاح المسلح ضد الاستعمار. أما في المنطقة الجنوبية فقد حدث عكس ذلك تماما، إذ استطاع الاستعمار الفرنسي، بحكم مستواه التكنولوجي المتطور، والحلقة المادية والحضارية الضخمة التي يستند إليها أن يقلب كثيرا من البنيات والعلاقات التقليدية ويفرض بها بالاساليب التقنية الحديثة بنيات وعلاقات جديدة، لاستغلال الطاقات والموارد والسوق، ويشيع فضلا عن ذلك غمط حياتها وقيمه الثقافية.

ولما جاءت سنة (1956) وجد المغرب نفسه وجها لوجه أمام هذا الإرث : جنوب متقدم نسبيا يستخدم الطرق التقنية الحديثة في الإنتاج ويتوفر على بنية تحتية مهمة؛ وشمال فقير ومتخلف لم ينل من المرحلة الاستعمارية غير حظ متواضع جداً من هذه التقنية. فما السبيل لحل المشكل ؟ إن المغرب الذي نهج الطريق الرأسمالي ليس عاجزاً عن حل المشكل وحسب، (إذ كيف يمكن لرأسماليتنا أن تحمل تناقضا هي نتيجته ؟) بل الأدهى أن وضعية التفاوت لم ترد على يدها إلا تفاحشاً، إن الدور الذي لعبه الاستعمار في تكريس هذا الاختلال، قد ذهبت فيه مغرب ما بعد 56 شوطاً بعيداً. أخذ في بعض مظاهره ما يشبه استعمار الجنوب للشمال.

4 - المدينة / البادية :

مع دخول الاستعمار ازداد التناقض بين أوضاع المدينة والبادية حدة فبعد أن كانت البورجوازية المغربية في أواخر القرن التاسع عشر 19 تتلمس طريق نهضتها وتحاول الخروج من شرققة المدينة وربط البادية بمصالحها أكثر فاكتر، فاجأها الاستعمار بهجوم مشروعه الاقتصادي المتفوق الذي أحال طموحاتها إلى دخان، وحكم عليها بالتبعية له، وهكذا انتكست البورجوازية ووجدت نفسها مرغمة على التكيف مع شروط النظام الاستعماري، ومن أبرز مظاهر هذا التكيف الانكماش الذي فرض عليها حتى تتلاءم مع المصالح الاقتصادية للاستعمار، ومنذ ذلك الوقت ازدادت عزلة البادية سياسيا عن المدينة، وانكششت كل منها على نفسها وحرصت الاستعمار على تكريس هذه الوضعية، فحافظت على نقاط المراقبة على مداخل المدن، وقللت إلى درجة كبيرة من فرص الاتصال السياسي بين المدينة والبادية، وقد ازدادت هذه الاجراءات شدة طيلة فترة المقاومة الباسلة، التي واجهت بها البوادي الجيش الاستعماري خوفاً من تسرب اخبار العمليات العسكرية الذي قد يؤدي إلى انتفاضة المدن تضامنا مع البادية. ولم يتوقف الحصار السياسي المضروب حتى مع سكوت المدافع (1935) بل استمرت حالة الحصار هذه طيلة الفترة الاستعمارية بكاملها.

أما على الصعيد الاقتصادي فقد عرفت العلاقات بينهما توسعاً شكّلت فيه البادية سوقاً رائجة يصرف فيها الاستعمار سلعه، ومصدراً للطاقة البشرية التي يحتاجها للصناعة في مدن المغرب والمركز. ولقد انعكست هذه الوضعية على البادية بالخصوص، بشكل خطير، فلم تنته المرحلة الاستعمارية حتى تحولت إلى كيان محطّم وشائخ اقتصاديا واجتماعيا، أما المدينة فكانت محتتها بالقياس إلى ما عانته البادية أقل بكثير.

ونظرا إلى أن البادية كانت ضحية اضطهاد مزدوج شارك فيه الاقطاع إلى جانب الاستعمار ومنذ المرحلة الاستعمارية، انحصر نشاط البورجوازية المغربية في المجالات التي كان الاستعمار يسمح لها بها داخل نطاق المدينة، الشيء الذي جعلها تعرف تحولات اقتصادية واجتماعية وتصيب بنتيجة ذلك حظا من الخدمات العامة، ومقابل هذا الانتعاش في المدينة ظلت البادية ترسف في أغلال الاضطهاد والفاقة والجهل. فماذا حدث في مرحلة الاستعمار الجديد ؟

ازدادت الهوة بين المدينة والبادية عمقا فقد عكفت الدولة على حل نسي لمشاكل المدينة فشيدت المدارس والمستشفيات وأصبح ساكن المدينة يتمتع بعدد من «الامتيازات» بالمقارنة مع البادية، وقد لعبت البورجوازية المتمركزة بالمدن بغيرتها دورا بارزا في الدفع بحركة التغيير في المدينة خطوات. أما البادية فلم يمسه شيء من هذا كله، ولولا مبادرة جماهيرها في حملة مشاريعها الجماعية كبناء الطرق والتشجير وبالخصوص حملة بناء المدارس وإحاحها في طلب المدرسين، لظلت في جهل أكثر مما هي عليه، وكيف يمكن للدولة أن تبنى المدارس لها، وهي التي عملت فيما بعد على انتزاع هذا المكسب من الجماهير بعد أن تبدلت الظروف لصالحها. إن البورجوازية التي ظلت مشروطة بنشاطها في المدينة، لم تقم بأي دور من أجل تغيير شروط التخلف في البادية، وإن قبولها تقمص الدور الذي حددته لها المرحلة الجديدة قد ساهم في تعميق الهوة بين المدينة والبادية التي لم تزدد مع مر الأيام الا تفاقما، الشيء الذي يؤكد أن أي محاولة للتخفيف من حدة هذا التناقض في ظل الوضع الاقتصادي الاجتماعي القائم محكوم عليها بالفشل سلفا.

ت — مواقف القوى الاجتماعية :

تباينت مواقف مختلف الأطراف من البادية تبعا لتباين مصالحها وأهدافها فيها :

أولا — الاستعمار : كان يهيم الحفاظ على مصالحه بها في الدرجة الأولى، فقد بقى في يد الاستعمارين بعد الاستقلال حوالي مليون هكتار، ولذلك ظل يرقب البادية بعين ساهرة. استمر على الوفاء لخليفه القديم : الاقطاع الجهوي، وعمل على تقويته ليلعب دور حارس أمين لمصالح سيده في البادية وفي الوطن عموما. وأيد طموحات الاقطاع المركزية، وقدم له المساعدة الضرورية (بناء مدرسة لأطر الداخلية، مثلا، بمساعدة فرنسية) وأعاره قسما من ضباطه ليشرفوا على تدريب الجيش، وطيلة الفترة التي كانت فيها الدولة منهمة في بناء جهازها السلطوي، استمر الجيش الاستعماري يؤدي مهمة القمع، والامثلة على تدخل الجيش

الفرنسي لقمع تحركات الجماهير كثيرة : تدخله في مراكز لإيقاف عمليات التطهير التي استهدفت لها عناصر من عملاء الاستعمار من طرف الجماهير/ تدخله لقمع جماهير مكناس التي خرجت تستنكر حادثة اختطاف الزعماء الجزائريين الخمسة/هجماته المتكررة على وجدة والاقليم / التنسيق بين الجيشين الفرنسي والمغربي بأكادير في مواجهة جيش التحرير المتجه إلى الصحراء لمواجهة احتمالات الموقف. وساهم الاستعمار الاسباني بدوره في تقديم العون إلى الدولة بتدريب عشرات الضباط.

أما موقف الاستعمار من جيش التحرير فلم يلحقه أي تغيير من حيث المبدأ، فقد احتفظ بعدائه المطلق له، وظل يترصد الفرصة لتصفيته، وكانت مؤامرة (56) تستهدف جيش التحرير بشكل مباشر، وحين قرر جيش التحرير مواصلة الكفاح المسلح في الجنوب، فزع الاستعمار الفرنسي، وحشد جيشه على الحدود الجنوبية - الجزائرية، وظل يرقب تحركاته بقلق.

لقد ظل الاستعمار سيد الموقف بلا منازع، والساخر على سير الأوضاع وفق ما خطط له، و وفق بكل ثقله وقوته إلى جانب السلطة، ومحضها ثقته، واهتم بتوفير الظروف الضرورية حتى تتم الولادة في أحسن الشروط : ولادة مرحلة الاستعمار الجديد، التي لم يفتأ يتعهد بها بحده ورعايته حتى ترشد وتصبح قادرة على إرساء سلطتها.

ثانيا - الاقطاع المركزي : ارتبط بالاستعمار واتكأ على دعمه، وظل السند الاساسي الذي يستمد منه قوته، كان هدفه الأول من البيادية : اخضاعها لسلطته وتحقيق الحكم المركزي. ولكن يقف في وجه هذه الرغبة قوتان : الاقطاع الجهوي : الذي لن تتحقق المركزية إلا على حسابه، والذي ظلي يتمتع بنوع من الاستقلال في كنف الاستعمار. طرح الاستعمار صيغة لحل هذا التناقض بين حليفه : أن يقدم الاقطاع الجهوي تنازلا سياسيا للمركزي، على أن يحتفظ بامتيازاته الأخرى كاملة، وكانت هي الصيغة التي قبل بها المركز، والتي استطاع ضمنها وطبقا لقانون القوة أن يضيف بعض رجال الاقطاع المحليين، وأن يسطو على جزء من ممتلكات البعض منهم، وأن يتحالف مع من هم أقل خطرا، والمدين قبلوا الانضواء تحت مظلته.

أما العقبة الكأداء في وجه توسع المركزي فهي تلك التي شكلها جيش التحرير، وهو قد كان مستعدا للمساومة مع القوى الأخرى، ولكنه لم يكن مستعدا لتقديم أي تنازل لهذا الأخر (أي جيش التحرير). ولذلك ارتبطت مهمة تصفيته بتحقيق هدفه الرئيسي، وحسم مسألة السلطة لصالحه وبواسطته هو نفسه بشكل نهائي. فلم يتردد لحظة في نصب الشراك له، وقد مرت عملية التصفية بمراحل : رفع في أولها شعار الائتحاق بالجيش النظامي، واستعملت أساليب متعددة لاجتذاب قاداته، وفي هذا الإطار جرى تعيين بعضهم في مناصب ادراية عالية، وحين نزل جيش التحرير إلى الجنوب لمواجهة مهمة التحرير، ازداد قلق الاقطاع، ودخل في تكتيك تصفوي جديد يقوم على امداد الحكومة لجيش التحرير بمساعدة شبه رسمية ودايمة حتى إذا أمن ارتباطه بها واعتماده عليها لم يقو على الصمود بعد قطعها بشكل مفاجيء فيؤدي

ذلك إلى ارباكه واضعافه، وقد نجحت الخطة نسبياً، حتى وجد جيش التحرير نفسه من أجل تأمين المؤن الضرورية لاستمراره يتعارض مع جماهير المنطقة التي لم يبتئها سياسياً لأدراك طبيعة المرحلة، وللمبادرة بالتأييد لدعمه عن وعي واقتناع، بدل لجوئه هو مضطراً إلى انتزاع هذا الدعم كرهاً، وطيلة هذه الفترة التي تميزت بمواجهة مكشوفة بين السلطة والجيش.

كانت البورجوازية تقف إلى جانب السلطة في هذا الصراع، باستثناء محمد علال (الفاصي)، غالباً، الذي كان نعمة ناشرة في الموقف البورجوازي، فقد دعم الجيش في الجنوب وساهم في قيادته السياسية.

أما الهدف الثاني للاقطاع المركزي فهو التوسع الاقتصادي. لقد ظل يعاني من ضعف تواجهه الاقتصاد في البداية، وأن نجاحه في تثبيت سلطته هو الخطوة الأساسية على طريق خلق مصالح اقتصادية هنالك. ولقد أيد، من طرف خفي، قرارات المجلس الحكومي الهادفة إلى مصادرة ممتلكات الاقطاع المحلي من الذين تعاونوا مع الاستعمار، فهذا أقرب سبيل يمكنه من وضع اليد على بعض هذه الممتلكات التي تنير شهيته. غير أنه لم يكن يؤيد الصيغة البورجوازية التي تميزت بالتطرف والشمول، لقد أراد أن تتحقق المصادرة ولكن بشكل جزئي لا يثير حفيظة باقي الاقطاع. أو تنبه الاستعمار.

يضاف إلى ذلك قمع الفلاحين وفي مقدمته ضرب حركة الريف الذي كشف للجماهير طبيعته (الاقطاع المركزي). ثم الوقوف في وجه توسع (حزب الاستقلال)، وفي هذا الإطار تأسست (الحركة الشعبية) التي ظهرت إلى الوجود كتوسع سياسي مركزه البادية في إطار الصراع الدائر بين الاقطاع والبورجوازية حول مسألة السلطة، وقد كان واضحاً للطرفين معاً، أو على الأقل للبورجوازية، أن الطريق إلى السلطة يمر من البداية، وأن الذي يستطيع الفوز في الرهان، هو من يملك القدرة على انتزاع ورقة البداية واستعمالها في الوقت المناسب، وهذا يطرح ضرورة تنظيمها كمهمة أولية. وفي هذا السياق يمكن فهم التحركات المكثفة التي شرع فيها اليومي منذ 1956 في الاطلس المتوسط (موطن قبيلته) التي شكلت الإراصات الأولى المترجمة لرغبة الاقطاع في إيجاد هذا الإطار السياسي. لكن المشكل القانوني طرح نفسه على الاقطاع بحدة خصوصاً بعد رفض المجلس الحكومي الذي كانت تسيطر عليه أغلبية استقلالية، إصدار لائحة الحريات العامة التي ليست سوى مظهر خارجي لصراع سياسي في العمق، ادراكاً منها لمقاصد الاقطاع في توقيت صدورها في ذلك الحين. ولما كان الاقطاع يسهه تأمين الغطاء القانوني لتصرفاته، فقد سلك من أجل أن تأخذ اللائحة طريقها إلى النور درب المسامحات وتقديم العروض السخية التي توجت بصفقة التحالف المصلحي مع الجناح البورجوازي المقاري، الذي كان يتسهم ذروة المجلس. وبموافقة المجلس على صدور اللائحة كان الاقطاع قد ربح خطوة ضد البورجوازية. ومن المفارقات التاريخية العجيبة، تبادل الأدوار بين الطبقتين فأصبح الاقطاع يدافع عن (الليبرالية) ويطالب بصدور اللائحة من أجل فرض نفوذه فيما بعد، وأصبحت البورجوازية تناهض الليبرالية وتتشكر لها.

أما الأهداف التي توخاها الاقطاع من وراء تأسيس (الحركة) فيمكن تلخيصها في :

1 — منافسة (حزب الاستقلال) في السبق إلى البادية، والاسراع بإيجاد الأطار التنظيمي الذي يمكن الاعتماد عليه من دعم مواقفه، والوقوف في نفس الوقت في وجه تقدم (الحزب). لقد بدأ النشاط المتزايد (الحزب) يبرز مواقع الاقطاع الجهوي في البادية، بعد أن حطمت سنة (56) الجدار الذي كان يحول بينه وبين البادية. إن البادية التي لم تعرف غير النهب والاستغلال والقهر الأيديولوجي، تفتح الآن أبوابها لرياح السياسة وهي إذ تفعل، تخطو بذلك خطوة واسعة على طريق امتلاك أداة تحررها، لقد كان الاقطاع يعي أن أي نجاح تحرزه جماهير البادية في هذا الاتجاه، يعرض نفوذه المادي والأيديولوجي للزوال، ويحول البادية إلى أرض معادية، لهذا انصب اهتمامه منذ زمن مبكر على إيجاد الأطار السياسي القادر على التصدي لهذا المد السياسي الذي بدأ يجتاح البادية، وليشكل في الوقت نفسه اداته لنشر أيديولوجيته وللدفاع عن سياسته. إن الإدارة رغم طابعها المركزي والمنظم لم تكن مؤهلة بعد لتلعب هذا الدور على الوجه المطلوب لما تنطوي عليه من أخطار أي محاولة للزج بها في صراع سياسي مباشر في وقت لم تأخذ فيه السلطة وضعها الطبيعي بعد، أضف إلى هذا عدم رغبة الاقطاع في التنازل عن بعض مظاهر الحياة، ناهيك عن وجود نسبة هائلة من الأطر الإدارية ذات الالتئام السياسي المحدد التي لا يمكن الاطمئنان إليها، لكنها يمكن أن تفيد مع ذلك ببعض الأدوار الصغيرة التي لا تتعدى العرقلة أو التصيق على بعض النشاطات السياسية. لهذا شكلت معضلة إيجاد الأطار السياسي، الذي يستطيع النهوض بهذا الدور، ويؤمن للاقطاع ظاهريا بقاءه في الظل بعيدا عن حلبة الصراع، إحدى المهمات التي طرحت نفسها عليه بحدة، وقد وجد في أحضان والمخيطب ظالته المنشودة، بالإضافة إلى ما يتمتعان به من شعبية نتيجة ماضيهما في جيش التحرير يستندان فوق ذلك إلى ولاء قبيلتيهما الذي يشكل مصدر قوة يستمدان منه نفوذهما السياسي، وهكذا استطاع الاقطاع، باستغلال لامكانيات أحرضان، أن يستفيد، لا فقط، من بناء أداة سياسية يمكنه الاعتماد عليها في البادية، بل استطاع أيضا، عن طريق هذا التوجيه أن يخلق مهمة يعده بها عن التفكير في اللاتحاق بالجيش النظامي، تخوفا من عصبيته التي يمكنها أن تشكل داخله مركز قوة لا يضاها في ممارسة التأثير وفي النفوذ. وجد الاقطاع نفسه، أمام غياب الطبقة الاجتماعية التي يمكنها أن تشكل الأساس المادي والسياسي لسلطته في البادية، مضطرا إلى الالتكأ على عنصر العصبية لمواجهة نشاط (الحزب) ولسد الفراغ الذي تعاني منه الدعاية الاقطاعية.

2 — أن تشكل (الحركة الشعبية) أداة الاقطاع في البادية للتعبير عن أيديولوجيته، بعد أن وجد نفسه في حاجة ماسة إلى مثل هذه الأداة، ليس فقط لمواجهة القيم الأيديولوجية الجديدة التي أصبحت تهب على البادية، وإنما أيضا وبالاساس ، لتقوم بتبهر واقع الاستغلال المضاعف الذي تعاني منه جماهير البادية.

3 — أن تساهم كذلك في تحريف التوجيه السياسي في البادية عن مساره الصحيح، وطمس حقيقة الصراع، وتزييف مطامع البادية في الانعتاق، وأن تشكل الأطار الذي يتلاءم

والأوضاع السياسية السائدة، وتكون في نفس الوقت مركزاً لتجمع اليمين وأداة في يد الثورة المضادة.

ثالثاً — الاقطاع الجهوي : يمكن القول أنه كان أكثر أطراف التحالف الاربعة تضرراً من مجيء الاستقلال، فقد انتزع منه في المرحلة الجديدة النفوذ السياسي الذي ظل يتمتع به في المرحلة السابقة، وركز مصالحه بالبادية أساساً، وأصعوبة وضعه في الشروط الجديدة، شكل الحلقة الضعيفة في التحالف الجديد. أما أهدافه فتتلخص في :

1 — الحفاظ على مصالحه، فقد استطاع أن يبني مصالح واسعة في المرحلة الاستعمارية، مستفيداً في ذلك من التحالف مع الاستعمار ومن نفوذه في البادية، وأمسى همه في المرحلة الجديدة هو الحفاظ على تلك المصالح، ومن أجل ذلك ارتبط بالاستعمار، القوة الوحيدة التي يستطيع أن يحضنها ثقته

2 — ولأنه لا يمكن أن يعيش بدون سند خارجي، فقد جسّد هذه الحاجة في رغبته في الحفاظ على تحالفه مع الاستعمار.

3 — ضرب سلطة الجماهير : لقد كشف الاقطاع الجهوي عن عدائه السافر للجماهير البادية في عدة مناسبات، وفي هذا يلتقي مع حليفه : الاستعمار والاقطاع المركزي، بل وقد يزهيم فيه، وفي إطار التنافس بين الاقطاع و(الحزب) حول البادية، وقف الاقطاع الجهوي إلى جانب شقيقه في خلق عراقيل للمجهودات التنظيمية لحزب الاستقلال.

• أما عن التناقض بين الاقطاعين (المركزي والجهوي) فقد تركز حول مسألة النفوذ السياسي الذي أصر الأول على تجريد الثاني منه : لقد تنازل الاقطاع الجهوي رسمياً عن هذا الامتياز في مسرحية «التوبة» (1955). غير أن عدداً من أفرادها استمروا عملياً في ممارسة امتيازاتهم القديمة، مما أدى إلى انفجار هذا التناقض أحياناً في أشكال عنيفة (حركة «عدي أو بهي» مثلاً، والتي كانت مناسبة أعطى فيها المركز درساً عن المصير الذي ينتظر كل من يفكر في الخروج عن طاعته منهم). ومن التناقضات التي واجهها هذا الاقطاع كذلك، اضطرار لكي ينسجم مع التعديلات التي أصبحت تتطلبها الإدارة الجديدة، إلى التكيف مع الشرط الجديد.

رابعاً — البورجوازية الوسطى : وقد مثلها سياسياً كل من (حزب الاستقلال) و(حزب الشورى والاستقلال) :

1 — حزب الاستقلال : تركز نشاطه التنظيمي والسياسي طيلة المرحلة الاستعمارية في المدينة، لذلك وجد نفسه مع حلول المرحلة الجديدة، وفي إطار الصراع على السلطة، يتجه إلى البادية لتدارك هذا النقص. وكان هدفه من التوسع في البادية : أ — تحقيق نفوذ إداري عن طريق تشجيع أطره للاتحاق بالوظائف في البادية، وقد التقى مع الاقطاع، الذي كان يعاني فقراً في الأطر، حول هذه النقطة. وكانت الخلفية الفكرية وراء هذا التوجيه. هي مساهمة (الحزب) في بناء السلطة على أساس أنها ستؤول إليه عندما يحسبها لصالحه في المركز؛ ب — لادرتوسع سياسي وتنظيمي حتى يستطيع كسب البادية إلى جانبه في صراعه مع الاقطاع،

وحتى لا يدع هذا الأخير يستخدمها ضده. واعتمد في الاتصال بالجماهير على موظفي الإدارة، وكثيراً ما كانت طرقه في الاتصال تتداخل مع أساليب الإدارة، ولأن المهمتين تتناهيان بطبيعتها فقد أوقع أطره في البادية في تناقض ذاتي بين مهمتي الحزب والسلطة الإدارية. وبنى تنظيماته على أساس التقسيمات القبلية القائمة. على أن مجهوداته التنظيمية اصطدمت بعوائق وضعها الاقطاع الجهوي في طريقه في عدة أقاليم، فارتفعت شكاوى هذه الأطر احتجاجاً على التمسكات. وردت صحف آنذاك بسياط من النقد مشهر ب: العقلية الاستعمارية التي من وراء هذه الاجراءات. ولم يكن هذا النقد يهدف إلى أكثر من إثارة ضجة تجعل القواد يكفون عن اجراءاتهم، وليس صادراً عن موقف مبدئي عام. تـ أما طموحاته الاقتصادية من وراء هذا التوسع فهي ضعيفة لا تتعدى المردود المادي الذي كانت تحنيه أطره من مناصبهم الإدارية. ما هي نتائج مجهودات (الحزب) في البادية؟ ان الذي حصد نتائج هذه المجهودات هو السلطة المركزية، حيث ابتلع جهازها الإداري أطر الحزب، فاستحال إلى هياكل فارغة، واستفاد الاقطاع من تحلي البورجوازية عن الأمة لتعميق الهوة بينهما، وضربها ببعضها حتى يتمكن من البقاء في الحياض بعيداً عن الصراعات، وعرف أخيراً كيف يحول مجهودات البورجوازية لتصب في قناته وتخدم أهدافه وترتد ضد الاهداف التي جاءت لخدمتها أصلاً.

2 — حزب الشورى والاستقلال: خرج إلى البادية بحثاً عن متفلس تنظيمي أمام ضغط وملاحقة حزب الاستقلال له في المدينة، ووجد في موجة التوسع الإداري مناسبة لتحقيق نوع من التواجد عن طريق بعث بعض أطر إلى شغل وظائف في البادية، ونظراً لسيادة (الحزب) شبه المطلقة في المدينة، فقد كان من جملة الاهداف التي توخاها في الانفتاح على البادية، البحث عن حلفاء، فلم يكن ضعفه يمكنه من الصمود في وجه (الحزب) عدوه التقليدي. ولأن بعض مناطق البادية كانت آنذاك مسرحاً للدعاية الاقطاعية التي افتتحتها (الحسن اليومي) بالتشهير (بحزب الاستقلال) فقد تسارعت صحف (حزب الشورى) إلى نشر بعض تصريحاته تعبيراً عن تأييدها الضمني له، وانتقل الصراع بين الحزبين (الشورى والاستقلال) وحزب الاستقلال، إلى البادية، فأصبح الموظفون المنتمون لحزب الشورى يتعرضون للمضايقات والاحتطافات بل حتى الاعتقال، ومنع بعض المواليين لحزب الاستقلال نشاطات (حزب الشورى) في مناطق قيادتهم. والنتيجة، أن (حزب الشورى) حاول الخروج من الازمة الخانقة التي كان يتخبط فيها، عن طريق البادية، فأحقق، ولم يتجاوز تمثيله داخل الإدارة نسبة ضئيلة جداً، ولم يفلح في إيجاد حليف هناك. يمكن الاعتماد عليه، كما أن تواجده التنظيمي ظل ضعيفاً جداً ومقتصراً على بعض المناطق فقط (كالرباط والشاوية وتازة).

خامساً — البورجوازية الكبرى: ارتبط الجناح المالي منها بالاستعمار وتقدم حادثة المسمى بـ (العياشي) مثالا بارزاً. فقد حاول فتح فروع لابنك فرنسية في أكادير. فتصدى (علال الفاسي) لهذه المحاولة، وأثار حملة ضد المشروع باعتباره مشروعاً استعمارياً جديداً. أما الجناح العقاري فقد قبل المخطط الحزبي وربط به مصالحه، وانشق عن (حزب الاستقلال) الذي كان من قبل أدواته السياسية، ولم يكن للجناحين معاً، المالي والعقاري، أي مطمح أتى في البادية.

سادسا - البورجوازية الصغيرة : تنوع مواقفها من البادية، حسب تنوع الفئات المكونة لها، ومن ذلك موقف :

أ - الجناح التكنوقراطي : كانت الصيغة التي عبر فيها عن موقفه في تلك المرحلة من مشاكل البادية والحلول التي ارتآها هي (التصميم الخماسي)، وبالرغم من الطموحات الوطنية والتقدمية للتصميم فإنه لم يول الاهتمام المطلوب للمسألة الفلاحية. وقد وجد نفسه، من أجل تلبية حاجات الصناعة التي أعطى لها (التصميم) الأولوية، يتخذ موقفا خجولا من أوضاع البادية، ويعمل على تكريس شروط الاستغلال، مهادنا بذلك مصالح الاستعمار والسلطة المركزية، لأن أي مساس بهذه المصالح يعرض اختيار (التصنيع) للفشل، مريرا هذا التوجه بكون تمويل المشاريع الصناعية يعتمد (في التصميم) على عائدات الانتاج الفلاحي؛ الخاص بالتصدير، من العملة الصعبة، الذي هو في أغلبه بيد المعمرين. وخوفا من مضاعفات موقف الدولة الفرنسية، أثر التصميم السكوت والتواطؤ عملها مع الاستعمار والسلطة المركزية، واكتفت أهدافه بمحاولة تحديث الفلاحة مع الحفاظ في نفس الوقت على البنيات القائمة، وفي هذا الصدد تقرر انشاء مدارس لتكوين مهندسين وتقنيين فلاحيين، وبناء معمل للجرارات انتهى إلى الفشل، وانشاء القرض الفلاحي وتوفير الأسمدة للفلاحين وتبني تطبيق عملية الحرث الجماعي وهو يقوم على ضم مجموعة قطع أرضية إلى بعضها في عملية حرث واحدة) الذي فشل هو الآخر، لأن لم يتم تبسيء الفلاحين لقبوله، ولم يكن مهتما بمشاركتهم الفعلية في التقرير والتنفيذ، وأكثر من ذلك كان المشروع حلا جزئيا يتهرب من المشاكل في الفلاحة.

هل كان بإمكان أي برنامج اصلاحي (بورجوازي أو بورجوازي صغير) أن يحل المشاكل الأساسية للبادية المغربية ؟ إن تجربة عدد من بلدان العالم الثالث التي طبقت فيها مثل هذه البرامج اثبتت خطأ مثل هذا التصور. لقد استطاعت بعضها فعلا أن تعدل من بعض شروط الاستغلال، بالتخفيف منها أو تجميدها لفترة على الأكثر، ولكنها لم تستطع الغاءها، لأنها بدل أن تتجه إلى جذور الظاهرة (الاستغلال) فتقطع دابرها، تكفي بإزالة الأعراض فقط، مما لا يتعارض مع (جوهر) الاستغلال وإن تبدلت اشكاله. ليس معنى هذا أن الاستغلال هو قدر البادية الأبدى، لأن برامج الإصلاح عبرت عن فشلها ليس فقط في حل مشكل البادية، وإنما أيضا في حل المشكل العام أي مشكل : التبعية. وقد اثبتت التجربة عجز جميع هذه البرامج عن مناهضة الأمبريالية وانحياز ثورة ديمقراطية شعبية، وذلك راجع إلى الطبيعة الطبقية لأصحاب هذه البرامج وإلى الشرط التاريخي الذي أصبح يفرض تعديلات لا تستطيع أن تجابهها غير طبقات أخرى أكثر جذرية في مواقفها. وأثبتت التجربة كذلك أن مهمة التصدي لجذور الاستغلال خارج سيط الشعب (وفي مقدمته الطبقة العاملة) هو وهم خالص، لأنه الاختيار الوحيد المؤهل تاريخيا للقضاء على جذور الاستغلال وانحياز التحول الاشتراكي.

ب - الجناح السياسي : كان أكثر قربا إلى تجسيد مطامح الجماهير من الأول. إذ أدرك حاجتها إلى الأطار الذي ينظم نضالها، فمكف على تأسيسه، فكانت (طريق الوحدة) هي الصيغة التي عبر فيها عن نفسه.

طريق الوحدة : واجهت المغرب مشكلة إعادة توحيد شطري الشمال والجنوب، كواحدة من أهم المعضلات التي أورتها له الاستعمار. واحتلت حيزاً مهماً من تفكير الأطراف المختلفة التي ارتبطت مصالحها بانحياز التوحيد في اسرع وقت. ف (الدولة) التي كان يهمها قبل كل شيء بناء سلطتها، كانت ترى فيه (التوحيد) خطوة أساسية في توسيع وتعزيز هذه السلطة، وقد شاركها البورجوازية نفس الاهتمام انطلاقاً من رغبتها في ان تكون السوق الوطنية رحبة بقدر رحبة ضموحاتها. أما البورجوازية الصغرى فيمكن قياس مصلحتها في التوحيد بمقدار حماسها له ذلك انها نصبت نفسها وكلا هاتين الطبقتين — حيث لم يكن بإمكان أي منهما حل مشكل من هذا المستوى بمفرده — في تقديم صيغة التوحيد، والقيام في نفس الوقت بمهمة الاشراف والتوجيه

أخذت الصيغة شكل طريق اطلق عليها (طريق الوحدة) يتم شقها بين المنطقتين بالاعتدال على العمل التطوعي للشباب، وفعلاً سارع الشباب من مختلف الاقاليم استجابة للنداء، لكن السؤال الاساسي الذي يجب طرحه هو: في أي اطار سياسي وظفت البورجوازية الصغيرة هذه المبادرة؟ هذا السؤال يكسني أهمية خاصة اذا نظرنا الى خلفية المشهد، حيث نجد (جيش التحرير) يقاوم في ظروف جد صعبة محاولات السلطة الرامية الى تصفيته، فإذا كان الشمال هو منطقة التواجد الاساسية لجيش التحرير سابقاً، فان عملية ضرب تراثه بالمنطقة يقتضي شق «طريق».... هكذا وجدت البورجوازية الصغيرة نفسها في غياب الرؤية السياسية للمشاكل تقدم خدمة «تاريخية» للسلطة وتشارك موضوعياً الى جانب «الردة» حين وقفت عند الوجه الجغرافي — الاقتصادي للمشروع. وبذلك لم تدخل في حسابها حقيقة الصراع الدائر بين الطرفين الرئيسيين في التناقض الوطني، ولم تنتبه الى امكانية استقلال السلطة للمشروع في تحقيق أهدافها... وبالرغم من السلبية العامة التي طبعت المشروع، فانه لم يخل مع ذلك من بعض الانجابيات تشهد على ما تملكه هذه الطبقة من طموحات وطنية ذات مضمون اقتصادي وما تكشف عنه، في كثير من الاحيان من مؤهلات بارعة في حل بعض المشاكل المعقدة بالاعتدال على الشعب دونما لجوء الى الاسلوب البيروقراطي. اما انجابيات المشروع فيمكن تلخيصها في التالي:

— ان المشروع انجز في اطار نضالي معتمدا على مبادرة وحماس الجماهير، وقد عرف هذا الجناح كيف يوظف هذا الاستعداد عن طريق تعبئة الشعب والاعتدال عليه.

— طموح هذا الجناح لحل تناقضات الشعب من خلال مشاريع عمل أساساً وفي هذا الصدد لعب المشروع دوراً عظيماً في خلق روابط تعارف بين ابناء الاقاليم المختلفة وفي محو مظاهر الاختتار الناجمة عن فروقات ذات طبيعة اقليمية أو لغوية (طبقية في العمق)

— الاعمال التثقيفية اليومية التي تخللت المشروع، تؤكد مدى اهتمام البورجوازية الصغيرة بتوفير حد ادنى التربية السياسية للشعب وحرصها على ان تكون مرتبطة بالممارسة.

— اعتماد بعض اساليب الانضباط المستمدة من السلوك العسكري، بهدف تربية الشباب على العمل المنضبط والمنظم.

— كانت (الطريق) من أهم بوادر تمييز البورجوازية الصغرى من حزب الاستقلال عن قيادته التقليدية، وبهذا الحدث بدأ تفجير التناقضات الوطنية داخل (الحزب) التي كانت محجوبة في مرحلة الصراع الوطني السابقة وكان أداة من أهم أدوات الاستقلال التنظيمي والسياسي للفتات الشعبية الكادحة بقيادة البورجوازية الصغرى عن قيادته البورجوازية، هذا الاستقلال الذي جسده (الاتحاد الوطني للقوات الشعبية) فيما بعد.

لقد مثلت مضاللات الفلاحين على امتداد ثلاث سنوات رافعة حركت مجمل الأوضاع، ودفعت بمختلف التناقضات نحو مزيد من الاستقطاب، وعجلت باستجلاء ملامح الصورة لكي تأخذ وضعها القار والطبيعي. لقد كانت البورجوازية أكثر حساسية بهذه الأحداث، التي دفعت بالتناقض الطبقي داخلها سريعا نحو الصدارة ثم الانفجار، وعجز (حزب الاستقلال) عن تحمل سف الهزات التي أصبحت تشمل داخله، ولم يعد بمقدوره الاستمرار في اداء دوره التقليدي كجهة تتعاضد داخله مختلف الطبقات الوطنية فانقرض العقد، ولم تات سنة 1954 حتى تلاشت آخر الخيوط الواهية التي ظلت تربط الطبقتين الى بعضهما، واعلنت البورجوازية الصغرى تأسيس اطارها السياسي والتنظيمي المستقل. حدث هذا بشكل متزامن مع ما كان يجري بالبادية، وانعكس بشكل قوي على تطور الصراع داخل (حزب الاستقلال) بحيث سارت الأحداث وانعكاساتها في خط متوازن ومتلازم تقريبا.

جـ — جناح العنف... ظل بحكم طبيعة ممارسته التقنية الصرف بعيداً عن تجسيد آمال جماهير البادية، وبعيدا عن أن يمارس أي تأثير عليها. ان عناصر هذا الجناح الذين (انتبهوا)، ولكن بعد فوات فرص لا تعوض، لفرض ما أمسى بالنسبة لهم ضرورة ملحة: سيادة اختياراتهم في الدولة، كانوا قبل ذلك قد وقفوا ومارسوا ممارسات لا تمت الى ما اكتشفوا فيه مصالحهم الطبقية بصلة، ففي ابان المؤامرة الاستعمارية في (اكس ليان) وفي الوقت الذي رفضت فيه عدة فصائل من المقاومة وجيش التحرير الانصياع للعبة واستمرت في مناهضتها، ومناهضة الاطراف المسؤولة عنها (ولو بغموض واحتشام مرتبك) كان موقف هؤلاء الذين استفاقوا عصراً، ليس هو فقط، الدفاع عن اطراف التحالف الرجعي عمليا وقبول العمل في الوضع «الجديد» بل وأكثر من ذلك لمساهمة في التصفية العنيفة للعناصر الثورية في ذلك الحين، اي أنهم هدموا بالضبط القاعدة الوحيدة والاساسية التي يمكنهم بالرجوع اليها ضمان مصالحهم الطبقية، وبالتالي ضمان الانتصار على نفس القوى اليمينية، التي اكتشفوا متأخرين، تناقض مصالحهم معها، وبدلا من اجراء عملية نقد ونقد ذاتي لماضي التجربة المغربية القريب وتحريرهم الخاصة نفسها، واستخلاص ما يلزمهم استخلاصه من ذلك، ومن ثم تلافي ما كان مجال تلافيه ممكنا بعد، استمروا في نفس اختيارهم بالابتعاد عن خط الجماهير واشكال ممارساتها الجماعية

والديمقراطية، هذا الاستمرار لم يتمثل فعلا هذه المرة على سبيل «التصفية» الداخلية للاطر المناضلة (الناشرة)، وانما بممارسة العنف المعزول والفردي بدون أفق.

ان المواقف والممارسات الطبقيّة التي لا تعتمد ثقة الشعب والثقة فيه خلال تحركها، مصورها، اذا لم تمارس العنف على الجماهير نفسها، أن تعمل بمحور عنها بعيداً عن خطها وفي كلتا الحالتين فالمضمون واحد والنتيجة واحدة، هي الفشل في انجاز أي شيء خارج ما يستفيده الخصم من مثل هذه الخطوط البورجوازية الصغيرة الفاسدة.

د — جناح الاندماج (في السلطة) : لقد كان لظروف النشأة في الظل والاستثنائية التي ترى عليها جيش التحرير، مفعول حاسم في تسرب العديد من العناصر ذات المصدر الاجتماعي الاقطاعي أو البورجوازي. وبالإضافة الى التأثيرات السلبية التي لا بد سيكون جيش التحرير قد عانى منها نتيجة هذا التسرب، خاصة وأن مثل هذه العناصر كانت مؤهلة أكثر من غيرها لتسبب مناصب القيادة والتي لم يتح من الزمن لجيش التحرير ما يمكنه خلال الممارسة الثورية واليومية للفظها او تغيير مواقعها داخله أو تحويلها ذاتيا. وحين المؤامرة، لم يكن من المنتظر من مثل هذه العناصر، أو الجزء الأكبر منها على الاصح، أن تقف الى جانب الشعب في محنة الطائفة، لقد كان أقصى ما طمحت وتطمح له هذه العناصر خلال تحركها السياسي — العسكري رفع الحيف أو بعض الحيف، الذي فرضه الوضع الاستعماري على تطلعاتها، أما وقد تغيرت الظروف الى الحد الذي سيسمح لها فيها بأخذ مكاسب أو مناصب، فليس ما يبرر اذن — في منطقها — استمرار ما أصبح يشكل لديها «فوضى» لا معنى لها ولا مسوغ، فعلى الجميع أن يهدأ وعلى الدنيا أن تستقر، ما دامت هي قد تمكنت من اقتعاد مقاعد من حجمها وحياتها اكبر، فلم الخصام إذن ؟

ان عقدة المشكل بالنسبة للبورجوازية الصغيرة هي أنها لم تكن ترى في المشاكل المختلفة وجهها السياسي والاجتماعي بقدر ما كانت تقف عند الوجه التقني فلا تتداه، ولهذا ظلت رؤيتها للامور أسيرة النظرة الجزئية التي تعجز عن رؤية العنل العميقة للاشياء والظواهر، وفشل هذه الطبقة من امتلاك رؤية علمية للواقع هو انعكاس لفشلها كطبقة ضمن المجتمع في العثور على مواقع اقدام ثابتة تخرج بها من دوامة التذبذب وعدم الاستقرار وهي صفة ملازمة لها ولا حيلة لها في التحرر منها في ظل الشروط الاقتصادية — الاجتماعية لهذه الطبقة والتي تتميز بعدم الاستقرار، اذ ليس لها مصالح ثابتة في المجتمع يمكنها أن ترجع اليها في بناء مواقف ثابتة، فمصالحها ليست مستقلة، وانما مرتبطة باحدى الطبقات الأخرى، وهذه الأخيرة اما ان تكون بورجوازية أو اقطاعية او بروليتاريا، ولكن كيف تستطيع أن تتحدد بأن مصالحها توجد هنا أو هناك؟ بمؤثر بسيط هو مدى رجحان كفة الصراع بينهما لصالح هذه الطبقة او تلك، وما دام ميزان القوى في مد وجزر قبل أن يحسم نهائيا لصالح الشعب (العمال أساسا) فان

البورجوازية الصغيرة، تتأرجح بعدد تأرجحات ميزان القوى بين الطبقتين الراسختي الاقدام والمصالح. وهذا هو المصدر الاساسي لكل المواقف المتذبذبة لهذه الطبقة، ولكن مصيبتها هي انها مالكة خيرة ولا تني تبحث لها عن منفذ لتصرفها، ولا يبدأ لها بال الا اذا امنت هذا المنفذ، انها كالبقرة الحلوب التي حالما يمتليء ضرعها لبنا تسترقها حالة عصبية لا تخلد بعدها الى الراحة الا اذا تخلصت من حملتها، وهي مستعدة دائما لتقديم خبرتها وخدماتها لمن يريد، مادامت هي لا تملك وسائل ومجالات تصرفها، وبما ان الطبقة القادرة على شراء هذه الخيرة هي تلك التي بيدها السلطة، فالبورجوازية الصغرى مستعدة لتقديمها إياها بدون شروط حتى ولو كانت ستستخدم في اتجاه مضاد للشعب. وقد عبرت البورجوازية الصغرى عن مدى استخفافها بمكاسب الجماهير في عدة مناسبات فهي التي عملت على تصفية بعض فصائل المقاومة، وتحالفت مع السلطة لضرب جيش التحرير، وبلغ ضيق الافق بقادتها حداً لم يخطر ببالهم انهم لن يسلموا يوماً من أن ترتد ضدهم السلطة نفسها التي تفتانوا في تدعيمها، وان الحكم سيقرب لهم ظهر الحجن، جاحداً خدماتهم الثمينة له حالما يرتب اوضاعه ويقوي ادوات سلطته.

وليس اسلوب الحوار والتعاون هو كل ما تملك هذه البورجوازية، فهي حين تفشل هذا الطريق تختار طريق الاستيلاء على السلطة، وهي لا تلجأ اليه الا اذا سد طريق الحوار في وجهها، وتظهر مهارة فائقة في المزاوجة في آن واحد بين الاسلوبين: الحوار والتحضير للعنف، مثلما تبدي مقدرة فائقة كذلك في تقسيم المهام بين اجنحتها، وحالما تظلم الآفاق في وجه الاتجاه الاول، وبعد ذلك بمثابة ضوء أخضر للجناح الثاني ليضرب ضربته، على اساس ان الاستيلاء على السلطة، سيفتح الباب على مصراعيه أمام تكنوقرا طيبها، ليوظفوا خبرتهم مستفيدين من أجهزة الدولة في تنفيذ في مشاريعهم وخططهم بكل حرية، ويلعب جهاز الدولة دوراً في تشكيل تصورات البورجوازية الصغيرة، فهي لا تفكر أو تخطط الا من خلاله، وهو يتدخل دائماً لطبع مشاريعها بميسمه، مما يثبت بشكل قطعي نظريتها التقنية. ونظراً لما لهذا الجهاز من تأثير على فكرها التقني فهي لا تستطيع ان توحد الأمة خارجة، وبذلك ظلت بممارساتها السياسية المتناقضة بعيدة عن تحقيق ذلك المطلب وعن تجسيده كخط عام.

لقد جاء امتحان 55/ 56 ليضع البورجوازية الصغيرة على المحك، غير انها لم تر في المشكل سوى وجهة التقني. لقد انرى الأستاذ بوعبيد مثلاً ينثر كل ما في جعبته من خيرة لفكرة الحلول الاقتصادية والتقنية لمشكل سياسي في عمقه هو: لمن توول السلطة : للاستعمار الجديد ام للقوى الوطنية الديمقراطية؟ لم تعجز البورجوازية الصغيرة عن تجسيد خط الجماهير فقط، بل الادهم انها عجزت حتى عن رؤية هذا الخط وهو يشق طريقه بقيادة جيش التحرير في الجنوب، واذا كانت هذه الطبقة قد لعبت دوراً سلبياً على حركة الجماهير، فان هذه الاخيرة على العكس من ذلك كان لها الفضل، بنضالاتها في البداية في التعجيل

بانطلاق صوت البورجوازية الصغرى من محبسه، وبروزه كخط تنظيمي وسياسي مستقل عن هيمنة القيادة البورجوازية.

ان الخلاصة الاساسية التي تقدمها تجربة البورجوازية الصغيرة في المغرب، والتي يجب التأكيد عليها باستمرار، هي ان هذه الطبقة في سعيها الدائم لاحتلال مركز اجتماعي وسياسي أحسن، تنتهي حين تكون معزولة عن قيادة البروليتاريا، الى خدمة الطبقات التي فوقها بما فيها الامبريالية والاقطاع... ولا تطرح طبيعة النظام الذي ستقدم اليه خدماتها الا اذا هي فشلت في ايجاد لغة حوار يضمن لها تحقيق بعض من مصالحها، حين ذاك فقط تفكر بضرورة تغييره عنفيا.

وان الملاحظة الاساسية التي يمكن تسجيلها من هذا العرض السريع لاطراف ومواقف مختلف القوى... هي أن مصالحها في البادية بقدر ما كانت متشابكة ومتداخلة، بقدر ما كانت متعارضة كذلك، واذا كانت (1959) هي محصلة التقاء وتصادم مجموع هذه الازدادات بالبادية في الوجه الذي يتصل منها بحل امتداد جيش التحرير بالجنوب في عهد حكومة عبد الله ابراهيم، التي خرج منها التحالف اليميني الحاكم أكثر قوة بالنسبة للاطراف الاخرى، فلأن هذا الاخير (الحكم) عرف - نتيجة قوته الموضوعية - كيف يجمع خيوط هذه العملية التاريخية بين يديه، ويتمهدها الى ان تنتهي تلك النهاية.

حركة اليف

كانت أوسع وأقوى الحركات الجماهيرية في البادية، عمت قسما منها في السنوات الأولى التي اعقبت (56)، اعلنت فيها الجماهير الريفية العصيان، ولم تجد النداءات، التي لم تعتبر سوى مناورات لتثيرة الذمة مسبقا من الجريمة القابلة، آذانا صاغية، بل لم ترد الانتفاضة الا تأججا إن عدم الاستجابة هذا للنداءات كاف وحده للدلالة على مستوى الوعي والتصميم وعدم الانخداع، وأصبح استمرارها يشكل تهديدا مباشرا على بناء سلطة الدولة نفسها، حيثئذ صدرت الأوامر العليا بقمع الحركة بعد تمهيد السبيل لذلك بعقد تحالفات جديدة هذه المرة مع جناح من البورجوازية الصغرى، هذه القوى الاجتماعية التي ستتكفل عندئذ باضفاء «المشروعية» على هذا القمع بتواجدها الى جانبه موضوعيا وعمليا، وبالرغم من الغموض الذي كان يحيط بالظروف التي رافقت الانتفاضة والاهداف، كذلك، التي قامت من اجل تحقيقها.. فان رؤية ذلك التحرك ضمن دائرة الصراع الطبقي هو الكفيل وحده بتحقيق تصور صحيح للبواعت العميقة لذلك التحرك. لقد شكلت تتمارك (جيش التحرير) ونضالات جماهير البادية السمة البارزة التي طبعت تلك الفترة قبل أن تنهزم في المعركة امام هجمة لتحالف الرجعي الاستعماري الجديد والذي لم يتوزع عن استخدام أساليب دنيئة في سبيل تثبيت سلطته ابرزها : اسلوب التحرش بالتململات الشعبية واستشارتها من أجل اظهار نفسها

قبل الأوان للاجهاز عليها، وهذا ما حدث بالضبط بالنسبة للجماهير منطقة الريف التي استطاعت السلطة لا أن تحرف توجيهها وتؤثر عليها فحسب بل وأن تؤمن قيادة رجعية لها، وهكذا هبت الجماهير في اطار توجيه وخدمة اهداف منافية لاهدافها ومطامحها / ولكن ما هي بواعت ذلك التحفز والاستعداد للنضال من طرف جماهير الريف ؟ هناك أسباب موضوعيه ناجمة عن :

1 — تدهور الوضع المعيشي للمنطقة لدرجة خطيرة، ولم تتخذ من الاجراءات الكفيلة بتأمين حياة السكان الا القليل جدا.

2 — احساس الجماهير بأن شيئا لم يتبدل من أحوالها بالرغم من مجيء الاستقلال، وليس استمرار وجود الادارة بنفس الوجه القمعي الكريه، وجباية الضرائب رغم الأوضاع المتردية للسكان، وطفيان لغة القمع على أية لغة أخرى.. الا مؤشرات عميقة الدلالة.

3 — اتساع التذمر وامتداده حتى الى قسم من رجال السلطة الذين انضموا الى الانتفاضة، بفعل تعارض مصالحهم مع الطابع المركزي للسلطة الجديدة.

كانت تلك بعض الاسباب التي جعلت من البادية قوة ثورية قادرة على رقد الحركة الجماهيرية بزخم لا يتضب، لكن الضعف الذاتي للحركة التجلي في انعدام التأطير والتوجيه الصحيحين قد حال دون تجديدها واكتسابها مواقع متقدمة، مما يسر مهمة ضربها، وقد استهدفت السلطة تبهن وراء هذه العملية استثمار ما أتاحتها لها كمناسبة :

أ — استعراض القوة بل واستعمالها أيضا بهدف تأديب الجماهير. لقد كان في حاجة الى مثل هذه الاساليب لإفهام (الناس) على ان الاستقلال الذي كانوا يتغنون بمجيئه ليس استقلالهم، وأن الأوضاع، وإن تغيرت من حيث الشكل، فان المضمون باق على حاله، وليس عليهم الا الرضوخ للامر الواقع.

ب — لم ينس المخزن وهو منهك في حل تناقضه الاساسي مع جماهير الريف تناقضه مع البورجوازية التي كانت تنافسه على السلطة على الرغم من ان المرحلة تميزت بالتحالف بين الطبقتين، لهذا عمد الى بث شعارات معادية «للحزب» عن طريق عملائه في قيادة الحركة ولعد استطاعت هذه الاثارة ان تنجح، فقد هجمت الجماهير الثائرة على مكاتب «الحزب» بالمنطقة، وأتلفتها محطمة بذلك كل المكاسب التي حققها «حزب الاستقلال» هناك، لقد صور للجماهير أن أصل البلاء هو الحزب، الذي انهم بطموح اكبر منه : الاستحواذ على السلطة والاستئثار بها وحده.. (١٩) ساقط ضالة وراء دعاية قيادتها الرجعية، وبذلك استطاع المخزن تحريف الصراع مع الجماهير نحو مسارب وهمية، وخلق وتغذية التناقضات في صفوفها بغية الأبقاء عليها أسيرة هذه التناقضات الشيء الذي يحقق له شرط سيادته على الجميع والبقاء فوق الصراعات.

ت - لقد كان من جملة الاهداف من وراء إثارة «حركة اليف» تجريد الجماهير من السلاح بعد ان ظل امتلاك الجماهير للسلاح كابوسا يجم على صدر المخزن، ولم يكن تجريد الجماهير من السلاح بالأمر اليسير وهي التي تترك أن نزع سلاحها من يدها هو خطوة على طريق الأجهاز على مكاسبها الأخرى وانتزاعها منها، ولذلك فالسلاح هو أداها في الدفاع عن تلك المكاسب، وهذا هو السر في فشل النداءات اليها بتسليم السلاح، حيث ردت عليها بالرفض، حينئذ صدر انذار يهدد كل من ضبط في حوزته سلاح بتقديمه امام محاكم عسكرية. لقد شكل تسليح الجماهير مسألة مصير بالنسبة للمخزن، ولذلك أصر بعناد على تصفية هذا المكسب الشعبي بأي ثمن، وفعلا نجحت الهجمة التي استهدفتها بعد صراع مرير دام زمنا طويلا عبرت فيه الجماهير عن مدى الأهمية القصوى التي توليها لسلاحها وعن المصير اليأس الذي ينتظرها بضياعه. ان الجماهير في اصرارها على التسليح كانت في الحقيقة تستلهم ماضيها القريب منه والبعيد، فقد انتزعه منها الاستعمار عند دخوله واستطاعت استرداده، وانتزع منها مجددا من طرف سلطة الاستقلال، لكنها كانت تتصدى باستمرار لكل محاولات تجريدتها منه ولم تتهاون في الدفاع عنه، وجسدت بذلك مدى التلاحم الشعبي الذي يربط وجودها نفسه بوجود السلاح بيدها.

ث - لقد كان من جملة ضحايا الحملة على «الريف» عناصر من قادة جيش التحرير كانوا قد قبلوا بصفة حل «جيش التحرير» بل وأسندت اليها مناصب ادارية حساسة ثم فصلت من هذه المناصب ووجهت اليها هم تدينها بالرغم من ميولها اليمينية، وقبولها للوضع الجديد للاستعمار في البلاد، واطلاق ولأنها له متخلفة بذلك عن الفصائل التي واصلت النضال، من اجل انتزاع استقلال حقيقي وغير مزيف، ومع ذلك نجد المخزن لم يتردد في انزال عقابه بهذه الجماعة، فما هي الضرورة التي تبرر مثل هذا العقاب ؟

ينبغي الإشارة أولا الى ان هذه الجماعة التي استهدفتها غضب المخزن، لم تكن دخيلة على المسرح السياسي الوطني، بل على العكس تتمتع، كما سبقت الإشارة، بماضٍ نضالي مشرق، وقد تسلمت رتبا عالية في السلطة، وبالرغم من تحاذيها فانها ظلت بدون شك تتمتع برصيد شعبي يؤمنه لها ذلك الماضي، الشيء الذي يحتفظ لها بتأثير على قسم من الجماهير يؤهلها للدخول في ممارسة لعبة القوة هي الأخرى، ولكن لماذا لم يبادر المخزن الى احتواء هذه القوة عن طريق احتواء قادتها الذين ابدوا استعدادا لذلك ؟

الواقع أن المخزن لا يمكن ان يتردد لمثل هذا الاحتواء لو أن القوة التي يمثلها هؤلاء كانت مضمونة بالقدر الذي يفضي بها عمليا الى تجاوز هذه القيادة، وهذا ما كان يحشاه المخزن خصوصا وأن الشرط الثوري كان ناضجا لاجتذاب الجماهير الى ساحة المعركة بفضل الدور الطبيعي لجيش التحرير في تأطير وقيادة المعركة، لقد احتاج المخزن لضرب هذه الجماعة بالرغم

من أنه لم تكن لهم سوى طموحات يسمون الى تحقيقها في ظل الوضع الجديد للاستعمار لا خارجه، وقد عمد من أجل ذلك الى توسيع سمعتهم بهدف تصفيتهم سياسيا، وهكذا تؤكد السلطة من جديد في هذه العملية وفاءها لقيمها المخزنية اتجاه الجماهير التي لا يقبل منها غير علاقة التبعية والولاء المطلقين.

ج — كان المخزن يعرف أن الشروط كلها مهيأة لانقفاضة، لذلك يادر باستشارة الجماهير ليتمكن من ضربها بها قبل أن تستكمل شروط نضجها.

ويبقى أن نضع سوألا آخر، وهو : هل نجحت خطة المخزن من وراء اثاره منطقة الريف ؟ يمكن القول : ان بعض الاهداف قد نجحت فعلا مثل تأليب الشعب على (حزب الاستقلال) وتحويل انظارها عن العدو الحقيقي في تلك المرحلة، وتحقيق الهدف الثاني وهو القمع الذي مورس بوحشية والذي اعطاه كذلك فرصة لظهور قوته واستعمالها ضد الانتفاضة لتكون عربة للاخرين، ولم ينجح تماما في نزع السلاح حيث بقيت بعض مظاهر حيازته مشاهدة حتى مطلع الستينات وان كانت الحملة التي خاضها في هذا الصدد تعتبر مقدمة في طريق تصفية هذا المكسب الشعبي، أما ما لم تكن تتوقعه الخطة، والذي يشكل فشلا ذريعا للفكر الرجعي الذي وراهها فهو أن الجماهير في استجابتها لنداء الانتفاضة، قد اندفعت في تيار عارم مفعجة كل الحدود التي رسمها واضعو الخطاب، وادخلت فيهم الرعب فلم يجملوا أمامهم غير الاستنجاد بالقوة (الجيش) لايقاف خطر المد الشعبي الجارف الذي اصبح يهدد وجودهم في الصميم مما يثبت الطابع المغامر لاي خطوة من طرف المخزن تتوخى تحريك الجماهير حتى من أجل اهداف قد تكون، فبالاخرى اذا كانت رجعية، لقد اثبتت الجماهير في انتفاضة الريف انها النقيض التاريخي — النضالي للرجعية والاهدافها، حتى وهي تناضل، بدون وعي منها، في اطار تلك الاهداف والخطط الفاسدة التي وضعت أصلا للايقاع بها.

وبضرب حركة الريف انطفأت آخر نقطة مضيئة للنضال الوطني الذي لم تكن الحركة سوى امتداد طبيعي له، استهدف من وراء ضربها تصفية آخر بقايا جيش التحرير في المنطقة.

ماذا كان موقف البورجوازية من حركة الريف ؟ اعتبرتها مؤامرة من طرف الاستعمار الاسباني كان يهدف من وراء اثارها تغطية رجوعه لاحتلال المنطقة من جديد، ولكنها رفضت الموقف المخزني الذي يقول باستخدام العنف لاجمادها، ان هذا الموقف للبورجوازية الوسطى يسمح باستخلاص الخلاصتين التاليتين :

أ — ان الحادثة بدل ان تشكل مناسبة لحرب الاستقلال يقوم فيها بالنقد الذاتي واستخلاص دروس التجربة والاعتراف بخطئها الاستراتيجي في التخلي عن الشعب والانحياز الى جهة السلطة، أرجعت اسباب الحركة الى قوة وهمية هي رغبة الاستعمار الاسباني في الرجوع، وفي هذا تحريف للجماهير عن الاسباب الحقيقية للانتفاضة، وتزييف لمطامعها في الاعتناق من الهيمنة المخزنية.

ب — في رفضها لقمع الحركة عبرت عن وعي نسي لمصلحتها في تلك المرحلة على الأقل وعدم قبولها بان تكون اداة في يد المخزن يستخدمها لتحقيق اهدافه.

اما البورجوازية الصغرى ... فلم ترفي الحادثة الا مناسبة تقدم فيها شهادة حسن السلوك الى السلطة، وتعبير عن موقف تنكيري اتجاه الجماهير، وعن مدى استخفافها بمكاسبها والاستعداد لتصفية هذه المكاسب، ولم تجد السلطة من يشاركها في تنفيذ مخططها التصفوي أفضل منها حيث سارعت الى تجديته في ظرف دقيق من تاريخها وساعدت على تليتها على حساب السلطة الشعبية.

وأما المخزن : فكان اكثر دهاء وقدرة على التناور في مواجهة الحركة، اكتشف أنه لا يقوى على قمعها بمفرده، وفوق هذا فهو غير راغب في تعرية طبيعته القمعية منذ ذلك الوقت المبكر الذي سيخسر فيه دفعة واحدة كل الهالة الوطنية التي اكتسبها لدى الشعب، واذن فهو يحتاج الى حليف يوجه القمع باسمه ويستخدمه قناعا يخفي وراءه، وبعد أن اشبع عطشه الى القمع، وجاء دور التبير، تشكلت (لجنة أنجاي) وعلى العكس من الموقف اللامسؤول للبورجوازية التي ردت أسباب الحادثة الى رغبة الاستعمار في الرجوع، فان اللجنة اوردت على الأقل في تقريرها (بهدف التضليل) بعض المشاكل التي تعاني منها الجماهير، الا انها قدمت حلولاً مزيفة لهذه المشاكل تحمّل بشكل أساسي التناقض مع البورجوازية حيث حاولت ان تصور للمواطنين أن المشكل الاداري ناتج عن رغبة بعض الاداريين استعمال الادارة لاغراض «حزب» تتناق مع وظيفتها كأداة لحل المشاكل التي تعاني منها هي، ودعا هؤلاء الاداريين الى ضرورة التحلل من انتمائهم الحزبية حتى يتسنى لهم خدمة «المصالح العامة» لا اهداف أحزابهم الضيقة. لقد عرف المخزن كيف يحقق أهدافه من اثارة الحركة وقمعها وبخروج من المعركة وموقفه اكثر قوة وقامساكا، وكيف يضع البورجوازية بجناحها في قفص الاتهام وجها لوجه أمام الجماهير.

لقد منحت عفوية الحركة والفوضى التي كانت تسودها وانعدام التوحيد... منحت المخزن امكانية تحريف توجيهها وترتيب شعاراتها، ولكن لماذا تميز موقف الجماهير بتلك القسوة اتجاه «حزب الاستقلال» حيث رددت خلال الانتفاضة شعارات معادية للحزب كما ناقضت بعض شعاراته محتفظة بشكلها بمحتوى معادي له، ولم تقف الجماهير عند حدود التشهير السياسي فقط بل تجاوزته الى الهجوم على مراكزه بالمنطقة واتلاف محتوياتها، فما هي دلالة هذا النقد القاسي الذي زاوجت فيه الجماهير بين النقد الشفوي والنقد بالممارسة ؟ وما هي اخطاء البورجوازية التي استحققت عليها كل هذا التأديب ؟

إن النظرة السطحية توحي بخطأ الجماهير في هذا الموقف، أو على الأقل أنها انسأقت وراء توجيه رجعي في تعميق التناقض بينها والبورجوازية. غير أن النظرة التأملة والتي تربط الحدث بالموقف التنكيري للبورجوازية وإرغائها في أحضان التحالف الاستعماري الرجعي وأزوارها عن

الجماهير... تستطيع اكتشاف مدى صواب الموقف الشعبي منها من حيث المبدأ (إن لم يكن من حيث الصيغة) لقد كانت الجماهير تعلق آمالا كبيرة على وقوف البورجوازية إلى صفها في صراعها ضد التحالف المنوه به، لكنها كانت قد انسأقت وراء بريق مصلحة كاذبة لوح لها به الاستعمار وولت ظهرها للشعب وتكر لمواقفها الوطنية السابقة، بل الأدهى أنها تحالفت معه فما هو العقاب الذي يستحقه موقف كهذا؟ أن الجماهير التي وجدت نفسها عزلاء أمام أعدائها الطيبين بعد أن تخلت عنها حليفها في منتصف الطريق قد كانت منصفة وعحقة في هذا التأديب، بحيث لم يخل خوؤها للنضال ضد الوضع الجديد من أن توجه «عنايتها» كذلك إلى البورجوازية، مذكرة إياها بشناعة مواقفها.

تلخيص وخلصات

1 — شكلت البادية المغربية خلال كل تاريخها القديم والحديث قطب الرمي في الصراع الاجتماعي. ولم يكن ذلك ناتجاً عن ظروف طارئة بل عن شروط تاريخية (اقتصادية — اجتماعية وسياسية) متحركة، وما تزال، في مجمل أوضاعها.

فهي في الماضي كما هي الحال اليوم، تعتبر من أهم مصادر الانتاج في المجتمع، وموطن أغلبية القوى العاملة، لذا فقد كانت محط استغلال الإقطاع القديم بأنواعه ومحط قمعه كذلك، ولعبت جماهيرها من ناحية أخرى المنبع الأساس للتقدم الاجتماعي والثورة.

ولم يتغير الأمر في شروط مرحلة الاستعمار، تصاعد الاستغلال بمشاركة المعمرين الفرنسيين في انتزاع أجود أراضي الفلاحين واستقوى استثمار عمل العمال الزراعيين في ضيعات المعمرين، وازداد القهر السياسي، وكانت أمثلة تاريخية دالة جداً، حين اضطرت الاستعمار، من أجل مواجهة المد المتعاظم لقوى الثورة التي واجهه بها الفلاحون، للتحالف مع الإقطاع حتى يستطيع التماسك مام شدة عنفها، وفي سبيل هذا التحالف حافظت البادية على التطين (القديم الإقطاعي، والجديد الرأسمالي الاستعماري) من الاستغلال، وتكرست البنيات والعلاقات الاجتماعية القديمة متساكنة مع التخط الجديد وأدى الفلاحون الثمن كله.

في مثل هذه الأوضاع لم يكن منتظراً من الفلاحين سوى تصعيد التحرك لمواجهة التحديات الجديدة المفروضة على شروط حياتهم فلم يترددوا. ولم تكن 1955 — 1956 حتى أعادت الجماهير الفلاحية، ومعها وفي طليعتها هذه المرة الطبقة العاملة وعموم سكان المدن، للمكركة من جديد مستعملة أمجادها الرائعة في الريف والصحراء والاطلس، وهكذا انحلت، أو كادت، نتيجة ذلك سلطة الإقطاع والاستعمار، وأخذت مكانها بوادر سلطة جديدة شعبية حقا وثورية جوهرية في شروطها التاريخية.

ومن جديد أرغمت حركة الجماهير أطراف الاستغلال القديمة، ومعها هذه المرة البورجوازية المحلية، فتنزلت، ولكن ليس خارجها، أي للجماهير نفسها، بل فيما بينها أساساً. فعقدت

صفقة تحالف لمواجهة الوضع الثوري الجديد، وكانت مؤامرة 1956 الاستعمارية. وبدأت معها مرحلة جديدة من المواجهة.

لم يستطع جيش التحرير، باعتباره القائد، نتيجة لحداثة نشأته وتضارب اتجاهات قيادته، وقوة الجيش داخله، استيعاب طبيعة الطرف الجديد وما يطرحه من مهمات جديدة وأساليب عمل وتكتيكات مخالفة لما قام عليه أصلاً من أهداف باهتة وطموحات غامضة. فكانت ضربة 1956 المخادقة عملية نقلت كل خصائص معسكر العدو إلى أوساط الجماهير فعمد الائتلاف والفضوى والانقسامات وتعدد المواقف وتناقضها، في حين استرجع التحالف الرجعي تماسك تخطيطه ودقة تحديد أهدافه وضبط صفوفه وخضوعه عموماً لتوجيه قيادة واحدة.

إن من يفرق في التكتيك من دون بعد أو أبعاد استراتيجية ويفلب الوجه التقني على حزب يجمع و يركز خيوط القيادة والتوجيه.... يكون هذا مصيره، حين يتغير الموقف من حوله وتتبدل مواقع عدوه، أو يقنع عليه وجهه... فلا يعود قادراً أمام فقر أدوات التحليل لديه على التمييز بين العدو والصديق بين الحليف والخصم.

ومع ذلك فإن عنصر الزمن قد لعب دوراً كبيراً — إلى جانب الشروط التاريخية الشاذة نسبياً لنشأة جيش التحرير محضوناً في الظل من أطراف عديدة — في هذه النتيجة غير المتناسبة مع زخم الحركة وتراثها التاريخي العظيم. هذه الواقعة التي فهمتها جيداً أطراف التحالف الرجعي وأسرت في حل خلافتها تحت ضغطها. فلو أتيح للجيش الوقت، ولو نسبياً، لحتم عليه تطور الصراع تجاوز الكثير من الثغرات والنواقص التي عثرته وضيبت رؤيته / وعلى ذلك فقد أدت الحركة أدواراً إيجابية في صيرورة الصراع الطبقي، فأسرعت بتطور وبروز العديد من الظواهر والمواقف، وكشفت بسرعة الضوء عدة أفتحة (انتهازات وخيانات) وجذرت من مواقف برجوازية المدف الصغرى، ودعمت تحررها السريع من قيادة البرجوازية واستقلالها عنها.

أما موقفها النقدي... اتجاه حزب البرجوازية الذي تحلى عنها — خصوصاً خلال انتفاضة منطقة الريف — فقد كان حدثاً رائعاً وسبقاً تاريخياً مشهوداً في التمرية والكشف والتجاوز.

ثانياً : أما الطبقة العاملة فلم يكن من المنتظر لطاقتها النضالية، أمام فقدانها تنظيمها السياسي الخاص القائد والموجه لخططها وتحركاتها، أن تنصرف خارج مصارف الانتهاز والنظرة التكتيكية المحدودة والضيقة. وهذا ما هيأته لها تماماً وبأمانة قيادتها النقابية البرجوازية، وهكذا خسرت الطبقة العاملة، في مقابل مكاسب مهمة حقاً على مستوى مصالحها المباشرة، مصالحها السياسية البعيدة؛ بتخليها عن حليفها القوي والأمين والجدير بكل ثقة : جماهير الفلاحين في البادية التي بقيت تتخبط وحدها بمنعرج الخطى حين فقدت سند المدينة لها وفقدت أكثر من ذلك : الطبقة العاملة (عقلها الموجه وريحها الحادة). وأمسك كما يقول المثل

«لا حمار لا سبعة فرانك» : خسارة من واجهتين تلك هي النتيجة الحتمية، والدروس التاريخي المستخلص من كل انفصال سياسي وتنظيمي بين هاتين الطبقتين التوأمتين، ذلك أن «السبع فرنكات» نفسها التي كسبتها الطبقة العاملة خلال نفس الفترة قد تعرضت، كما نعرف، لسرقة من جديد، بمجرد ما تمت سرقة «الحمار» نهائيا.

ثالثا : أما البورجوازية الصغرى في المدن، فقد وضع أي طاقة فعالة تخمسها حركة الشعب بخسارتها لهذا الطبقة، وظهر أكثر من ذلك مدى ما تصل إليه مواقف وممارسات هذه الطبقة من انتهاز مخز بل ونحايانات حين تفقد مربيا وضابط تحركها الرشيد أي : حزب الطبقة العاملة.

إن البورجوازية الصغيرة في المدن قبلت بكل بساطة الوضع الاستعماري الجديد مبدئيا، وقررت الاستفادة من شروطه، وقدّست عموما، العمل في الشرعية والتخلى عن غيره، وصممت على ألا يكون لها موقف واحد ومحدد إلا حين يتصل الأمر بتقديم الخدمة — بالبحان أحيانا — للتحالف الاستعماري الجديد. ولم تكن خصائلها البارزة مؤهلة لوعي الوجه السياسي من المشكل، فاستعارت من خردة الاستعمار الجديد التي أعاد صقلها جيدا ليأخذ بريقها المزيف لب أمثالها من المثقفين على كل سلعة براقعة، ايدولوجية «الحلول التقنية المعجزة» لحل كل المشاكل. ولو أخذت هذه المشاكل صبغة تناحر طبقات، ولم تكن غير الطبقة السائدة، قوة تملك إمكانية شراء بضاعة التقنية «المستهلكة» هذه، وقد وظفتها بالخدافير لقمع الحركة في آخر التحليل، أن هذا في العمق هو نفس موقف العناصر التي رفضت العمل في الشرعية، وحاولت عن طريق العمل المزعول (بعد أخطاء مشينة سابقة اتجهت الحركة في البداية) أن تصحح ما أفسدته بفساد لا يقل في الجوهر عن السابق. وقد استمرت أنجح عناصرها وهي قليلة، في الامتداد الجديد للحركة (جيش التحرير) في الصحراء. قبل أن ينتهي هو الآخر إلى الحائط متخبطا في نفس التناقضات — من حيث النوع — التي انتهت وجود جيش التحرير في عموم بادية المغرب.

رابعا : أما البورجوازية : فقد برهنت على أنها الخادم المطيع الذي لا يتردد في تنفيذ جميع طلبات «الطبقة السائدة» حين يتعلق الأمر بمواجهة الجماهير. إنها بورجوازية أكلتها تناقضاتها الداخلية، ولم تكن محتاجة حتى إلى اثاره الحكم ومناوراته لتضرب بعضها ببعض. فتجز هذه المهمة تلقائيا وبكامل الارتياح، مادام الاسياد راضين. لقد كان همها، الذي أخذ عقلها (إن كان لها عقل) هو السهر الدؤوب على نفس ذاتها، باذلة كل جهد لكي تبني بحيرة أطرها جهاز السلطة القمعي بدون أدنى شرط أو تحفظ ما دام الهدف يتعلق بلجم جماهير الفلاحين في البداية. التي خرجت عن الطاعة، وعن كل طاعة ومنها طاعة حزبا، لقد صنعت بيدها ومن جسدها العصا التي سترجع عليها هي نفسها من أجل رهان خاسر وهي وفساد منذ البدء بدون حتى كلمة شكر أو تعبير عن حسن النية من طرف خصمها.

والادهمي وهما بإمكانية اكتساب شعبية — هي أخرج إليها في خلافاتها آنذاك مع السلطة — عن طريق استغلال نفس الجهاز التي يعاني منه الفلاحون الامرين، فلم يكن المسؤول الحزبي سوى نفس المسؤول الاداري فيها. وهل من المستطاع أن يحل منطق العجز الذاتي هذا (أي قلة الاطر لديها) تناقض هدفين في عمل واحد : بناء جهاز السلطة، وتنظيم الجماهير في ظل شعارات وطنية مزيفة ومن طرف نفس الشخص (19) هذا التناقض الذي عانت منه أطرها-المسؤولة في البداية حل موضوعيا بتحويل «موضوعي» للاطار من المصالح التي كانت تربطه بحزبه إلى مصالحه المكتسبة حديثا مع جهاز السلطة المخزني، فاتكأ على اتجاه القمع كما كان منتظرا له تماما أن يكون أما أوهام الذين يريدون أن يحتفظوا بكرسيين في آن معاً، فقد تمزقت هباءً بينهما كاشفة عن زيفها الاصيلي.

ثالثا : أما البورجوازية الصغرى في المدن، فقد وضح أي طاقة فعالة تخسرهما حركة الشعب بخسارتها لهذا الطبقة، وظهر أكثر من ذلك مدى ما تصل إليه مواقف وممارسات هذه الطبقة من انتهاز مخز بل وغيانات حين تفقد مربيا وضابط تحركها الرشيد أي : حرب الطبقة العاملة.

إن البورجوازية الصغيرة في المدن قبلت بكل بساطة الوضع الاستعماري الجديد مبدئياً، وقررت الاستفادة من شروطه، وقدّست عموماً، العمل في الشرعية والتخلي عن غيوبه، وصممت على ألا يكون لها موقف واحد ومحدد إلا حين يتصل الامر بتقديم الخدمة — بالجمان أحياناً — للتحالف الاستعماري الجديد. ولم تكن خصائصها البارزة مؤهلة لوعي الوجه السياسي من المشكل، فاستعارت من خردة الاستعمار الجديد التي أعاد صقلها جيداً ليأخذ بريقها المزيف لب أمثالها من المتهاقين على كل سلعة براق، ايدولوجية «الحلول التقنية المعجزة» لحل كل المشاكل. ولو أخذت هذه المشاكل صيغة تناحر طبقات، ولم تكن غير الطبقة السائدة، قوة تملك إمكانية شراء بضاعة التقنية «المستهلكة» هذه، وقد وظفتها بالخدافير لقمع الحركة في آخر التحليل، أن هذا في العمق هو نفس موقف العناصر التي رفضت العمل في الشرعية، وحاولت عن طريق العمل المعزول (بعد أحطاء مشينة سابقة اتجاه الحركة في البادية) أن تصحح ما أفسدته بفساد لا يقل في الجوهر عن السابق. وقد استمرت أنجح عناصرها وهي قليلة، في الامتداد الجديد للحركة (جيش التحرير) في الصحراء. قبل أن ينتهي هو الآخر إلى الحائظ متخبطاً في نفس التناقضات — من حيث النوع — التي انتهت وجود جيش التحرير في عموم بادية المغرب.

رابعا : أما البورجوازية : فقد برهنت على أنها الخادم المطيع الذي لا يتردد في تنفيذ جميع طلبات «الطبقة السائدة» حين يتعلق الامر بمواجهة الجماهير. إنها بورجوازية أكلتها تناقضاتها الداخلية، ولم تكن محتاجة حتى إلى اثاره الحكم ومناوراته لتضرب بعضها ببعض. فتنجز هذه المهمة تلقائياً وبكامل الاترياح، مادام الاسياد راضين. لقد كان همها، الذي أخذ عقلها (إن

كان لما عقل) هو السهر الدؤوب على نفس ذاتها، باذلة كل جهد لكي تبني بحيرة أطرها جهاز السلطة القمعي بدون أدنى شرط أو تحفظ ما دام الهدف يتعلق بلجم جماهير الفلاحين في البادية. التي خرجت عن الطاعة، وعن كل طاعة ومنها طاعة حزبها، لقد صنعت بيدها ومن جسدها العصا التي سترجع عليها هي نفسها من أجل رهان خاسر وهمي وفاسد منذ البدء بدون حتى كلمة شكر أو تعبير عن حسن النية من طرف خصمها.

والأدهى وهما بإمكانية اكتساب شعبية — هي أحوج إليها في خلافاتها آنذاك مع السلطة — عن طريق استغلال نفس الجهاز التي يعاني منه الفلاحون الأيمن، فلم يكن المسؤول الحزبي سوى نفس المسؤول الإداري فيها. وهل من المستطاع أن يخل منطق العجز الذاتي هذا (أي قلة الأطر لديها) مناقض هدفين في عمل واحد : بناء جهاز السلطة وتنظيم الجماهير في ظل شعارات وطنيه مزيفة ومن طرف نفس الشخص (19) هذا التناقض الذي عانت منه أطرها المسؤولة في البادية حل موضوعياً بتحويل «موضوعي» للاطار من المصالح التي كانت تربطه بحزبه إلى مصالحه المكتسبة حديثاً مع جهاز السلطة الحزبي، فأتى على اتجاه القمع كما كان منتظراً له تماماً أن يكون أما أوهام الذين يريدون أن يحتفظوا بكرسيين في آن معاً، فقد تمزقت هباءً بينهما كاشفة عن زيفها الأصلي.

وبالنسبة للتقسيم الإداري المنسجم والمتطابق مع التقسيم القبلي والذي وقع نتيجة التحالف الاستعماري — الحزبي القديم، فقد وقع الحفاظ عليه وتكريسه بمساهمة من البورجوازية، بل إن تنظيم حزبها في البادية قد سار على نفس النسق، وكيف له أن يخرج عن شروط حضائته الاستعمارية الجديدة.

وفي انتفاضة الريف المباركة، اخذت الجماهير نصيبها الذي تستحقه من النقد بالممارسة وكانت لها فرصة للمراجعة والتحصيص تخلت عنها بعناد مصرة على أن السبب وراء الأحداث كامن في (رغبة الاستعمار في الرجوع) ناسية أنها لم تكن الا ضيفاً غير مرغوب فيه أحياناً لديه.

ان بلاهة البورجوازية في توهم نفسها أنها تملك السلطة بوجودها في الحكومة وامتثالها من الاجهزة الادارية... الشكلية، هي نفسها قد انعكست على مواقفها في البادية. لقد كان واضحاً أن من حسم مشكل السلطة حقا في «المركز» باستيلائه على اجهزتها الحقيقية (الجيش — الأمن ...) هو من يستطيع حسمها في النهاية لصالحه في البادية.

خامساً : أما الطبقة السائدة ومن ورائها الاستعمار فقد كانت فارس الميدان بلا منازع الا إذا كان (المنازع) من طينة تربي عليها عضلاتها، كانت تستند الى خيرة تاريخ طويل في ممارسة السلطة وما تقتضيه من مقومات الدس والتناور والتآمر وكل ما يمت الى خبث التسلط الطبقي بقرابة الدم والأصل، حلت تناقضاتها الداخلية بدهاء، وعلى النقيض من تبدل

البورجوازية التي تخلت عن قوتها الوحيدة الممكنة في البادية : جماهير الفلاحين (فتخلت عنها الأخيرة بالنتيجة)، ارتكز الاقطاع المركزي على الاقطاع الجهوي وعلى المعمين، ولم يفرط فيما الا حين الضرورة القصوى، وعرف اكثر من ذلك كيف يلعب بتناقضات البورجوازية بمختلف فصائلها ومستوياتها، بل وكيف يستعملهم لتنفيذ مجموع خططه موهما بأهم بانها خططهم الخاصة، مخفياً نفسه دائماً وراءهم بعيداً عن سخط الشعب وعن غضبه محافظاً بذلك على نقاوة مغشوشة وأبوية للجميع محايدة، زائفة.

وفي لقاءهم الحميم أمام مشكل البادية دل الاقطاع والبورجوازية ومن ورائهما الاستعمار على مدى الوحدة المتينة التي يلتجئون الى الاخذ بها حالما يتمثل الخطر الاكبر — الجماهير — على مجموع مصالح الاستغلال كيفما كان مستواها، ومن اجل تثبيت السلطة، وما احتيج اليه من أجل ذلك من أطر ادارية، وتعارن الاطراف ثلاثتهم دون أن يتمكنوا من تحقيق ذلك الا بعد جهد جهيد وزمن مديد، وبذلك اعطوا برهاناً آخر على الضعف العام والعميق الذي يميز كلا الطبقتين رغم دعم الاستعمار، أمام قدرات وطاقات الجماهير على حل مشكل السلطة ومشكل أطرها حينما تكون في وضع نوري حقاً.

سابعاً : لقد كان امتداد حركة جيش التحرير التحريرية الى الجنوب، بعد المؤامرة وامتداد واستمرار عملها على ثلاث جبهات : الصحراء وموريطانيا ودعم الجزائر. خطاً سديداً تماماً ومتوافقاً أشد التوافق مع شروط الوضع الجديد الذي شكلته مناورة التحالف الرجعي، لقد كان فرصتها الوحيدة للاستمرار واعادة البناء وتقوية السلطة الشعبية الفتية في شروط لا يستطيع معها الحكم — الا بتحرج بل ومغامرة — مواجهتها علناً ومحاولة تصفيتاها، كما صنع في أماكن أخرى، الا أنها سقطت في اخطاء كبيرة لم يكن لها معها — رغم متعلقها السديد — أن تستمر منتصرة على اعدائها المترصين :

أ — عدم تحديدها المضبوط لاهدافها السياسية وليس العسكرية، فقط، القرية المدى، وعلى الاخص البعيدة المدى (الغرق في التكتيك).

ب — عدم تنظيم الجماهير في اشكال ممارسات سياسية واقتصادية — ليس عسكرية فقط — تحت شروط برنامج مفصل وخصاص بالمنطقة «المحررة» على الاقل.

ت — وعلى العكس من ذلك، اصطنع جيش التحرير علاقة سيئة وغير صحيحة مع جماهير المنطقة، بالاحص في مسألة الدعم المادي، التي كانت تؤخذ حين الضرورة (بعد أن حجبت الحكومة عنهم معوناتاها غير المباشرة، في محاولة ناجحة لخلق تحركهم ذي الطابع العسكري الصرف، وضرهم بالجماهير في المنطقة خصوصاً) قهراً من طرفها: امام الحاجة الحيوية لذلك (الجوع) وافتقاد أطر تنظيمية وعمل سابق معها يضمن الدعم الثابت والدائم والطوعي الواعي.

ث - قبولها الانعزال عن جماهير المدن عموما الذي فرضته الحكومة عليها، وضعف محاولاتها لتجاوز ذلك، الا ما كان يجري - بشكل دعائي فقط ولكنه هزيل مع ذلك - عن طريق (حزب الاستقلال).

ج - سقوطها العملي - بعد مجهود ماض طويل من الاستقلالية - تحت هيمنة (حزب الاستقلال) وبالأخص من شخص المرحوم علال الفاسي واتباعه من جهة، أو أخصامه في الحزب من جهة أخرى.

ح - السقوط في نزعة عسكرية مبالغ فيها، واحتقار عملي لمضمون العمل السياسي، والنتيجة الافتقار الى البرزاج في هذا الصدد.

خ - بداية نزعة زعامية - بيروقراطية لدى بعض قياداتها، ووقوعها في خلافات ليست من طبيعة سياسية وانما هي خلافات قيادية ذاتية.

د - موقف انتهازى من تناقضات الشعب الناتجة عن النزعات «القبلية» وقبولهم نتيجة ذلك الانسياق عموما مع عصبية قبلية او قبائل المنطقة (آيت باعمران) ضد عناصر القبائل النازحة من الشمال (الأطلس - الريف...)

ذ - تقيدها باغلال الدعم المادي الحكومي غير المباشر، وربما غير المقصود، لفترة لم تكن الاخيرة فيها متضررة من ذلك ان لم تكن مستفيدة كورقة ضغط في المفاوضات، ومن ثم عدم تقديرها المغزى السياسي لذلك الدعم المؤقت، وخطره على المدى القريب والبعيد خصوصا. فخسرت بذلك دعم الشعب عند الاحتياج، وخسرت بالتالي كيانها بالنتيجة حين لم تعرف كيف تستفيد من شروط الوضع المؤقت لتهيء شروط دعم مادي وسياسي ثابت ومتنام بالاعتماد أساسا على تنظيم الجماهير.

وفي العمق، وعند آخر التحليل، اين يكمن المشكل حقا؟ أنه في فقدان الجماهير في قمة نهوضها الثوري الى حزب سياسي طليعي معبر عن فكر وخط أكثر أجنحتها طليعية ومقدرة وطول نفس ووضوح خط : الطبقة العاملة في المدن والبوادي.

6 - انتفاضة «1958» المدوية في منطقة الريف، كانت التعبير الصارخ والعنيف ضد المؤامرة وضد مفعول نتائجها على حياة ومعيشة الجماهير الكادحة انها من البقايا البقية لغنى فضالات 55 - 1956، ولكنها كانت آخرها قبل أن تنتقل الحركة الى طور، بل أطوار جديدة، وجاءت طليعية المنطقة ومبادرتها لمثل هذا التحرك الشعبي الرائع نتيجة تاريخية ومنطقية لشروط الميز الاقليمي الذي اصطنعه منطلق المصلحة الاستعمارية قبلا، والذي تكرر بثبتت الوضع الجديد لنفس الشرط الاستعماري القديم، وكانت بذلك تسجيلا تاريخيا لواقع عدم الاختلاف النوعي بين المرحلتين، وأكثر من ذلك، لوعي الجماهير بحقيقة هذه المهزلة - المأساة، التي قدمت لها تعويضا عن كل تضحياتها المجيدة.

ولم تتخضع جماهير المنطقة بالنداءات... بل رفضت الانصياع الى الخزعات التي فقدت
بهيبتها وشرعيتها المضللة، وسارت قدما في طريقها، ووضع بذلك ما كانت تفهمه هي
وتقصده خلال مرحلة نضالها السابق من مختلف الشعارات المزجاة لها. إنه الاستقلال الشامل
لمجموع الوطن (وحدة الوطن) وتحقيق السيادة الفعلية لها عليه، أما الصيغ الشكلية لتلك
الشعارات فلم تكن سوى تكتيك لجمع الشمل بمن فيه بعض من كانت تستهدف تجميد
تحالفه مع العدو الرئيسي (الاستعمار).

أما الطبقة السائدة فقد فهمت من ذلك كل شيء، واستخلصت ما يلزم استخلاصه، أو
هي تأكدت منه بالأحرى، وجزمت أمرها على الجذ، فبعد أن حاولت استعمال البورجوازية
لتمرير جريمة قمع الانتفاضة، رفضت هذه (ربما لأول وآخر مرة) أن تغسل يدها بدم لمن يتحول
بين يديها الى ذهب، أما البورجوازية الصغرى فقد تقبلت المشروع — المجزرة بطيبة خاطر ما
دام يفتح أمامها مجال تنفيذ مخططاتها التقنية — المعجزة ويُيسر لها فرصة استقلالها التنظيمي
عن حزب البورجوازية وبناء تنظيمها السياسي الخاص متكئة على دعم الجهاز الاداري
وامكانياته «الملغومة».

وكون الاقطاع استطاع التأثير — المباشر أو غير المباشر — في اثاره الانتفاضة بل وحتى
نوجيها، فهذا شيء واضح في توقيتها غير المناسب لانطلاقها من غير تنسيق مع أقاليم أخرى.
وكذا في الطابع العفوي الشامل لها وفي شعاراتها المغشوشة كثيرا، وأكثر من هذا في عناصر
قيادتها اليمينية، وفي البلبلة والفضى وتعدد الشائعات من مختلف الأنواع والتي تخبطت وسط
تأثيراتها الضارة بل القاتلة، وتأكد كل ذلك بشكل أقوى حين انواجهه الدموية والوحشية التي
تعرضت لها، واتضح ما كانت الرجعية ترغب فيه من هذه الاثارة للشبل قبل استنساذه
كفرصة لعرض العضلات و «تأديب» «الغوغاء» وتصفية بقايا «أوهامهم» حول الاستقلال
الوطني الذي فهموه «خطأ» كاستقلال خاص بهم فقط ما داموا هم وحدهم الذين دفعوا
ثمنه من حرياتهم ومعاشهم بل ودمائهم.

وهذه هي بالضبط، كانت اخطاؤها التي قتلتها وهي في المهد.

تعقيب واستطراد

بين ظروف كتابة هذا المقال، وظروف اليوم، إن بالنسبة للموطن أو بالنسبة لكتابه، فروق كثيرة، ولو أمكن لصاحبه أن يعيد كتابته في الشروط الحالية، العامة والخاصة، لكان تغير في جانين ثانوين ولكنهما هامين مع ذلك :

1 — لهجته التي راعت مواقف بعض القوى التي كانت يومها متقدمة نسبياً، أما اليوم فقد باعت كل شيء حتى رموزها، وتبدلت هي الأخرى في «لهجتها» اتجاه الشعب، وكان الأخرى بنا إن تغير اتجاهها كذلك، إن (حزب الاستقلال) مثلا الذي كان بالأمس البعيد حزبا لكل الشعب ثم حزبا لجزء منه مع زعامة الوطني النبيل «علال الفاسي» انتهى اليوم كمي يصبح حزب الأقلية التي كان يخارها المرحوم بنمت «المعمرين الجدد»، انتهى إلى حزب حاكم في : ماي وفي يونيو 81 وبـ «اصلاحات» التعليم... وسبحان مبدل أحوال التمر إلى قسط أنيسة.

[وبالمناسبة، فسنصنع جيلا وواجبا اذا عمدت هيئاتنا الوطنية المختلفة وعمد مثقفوننا... لانقاذ الزعيمين الوطنيين : بلحسن الوزاني وعلال الفاسي... من الاستئثار السياسي — الحزبي (الانتخالي) وارجاعهما إلى مكانتهما ومكانتهما في التاريخ الوطني — الشعبي للامة وضدا على من تنكروا للرسالة وشوهوا التركة]

2 — اغلب أطروحات وأفكار المقال غير موثقة في النص، بالرغم من أنها غير ذلك في واحة صاحبه، وفي جميع الأحوال فما يسوغ للمقالة ويعرض عن هذا «الغيب» — الشكل هو الآخر — هو رهانها التنظوي والمنهجي والتوجيهي. في محاولة لصياغة رؤية وقراءة لتاريخ غير مؤرخ ولمناطق بقيت في الظل بآسها وشهادتها، وفي سبيل تأسيس كتابة للتاريخ المغربي الحديث مضادة للكتابة السائدة حتى الآن من طرف المساهمة في متفقي البورجوازية.

وبعد ...

فكيف هي الأحوال اليوم ؟

التطور الموضوعي لأحوال العلاقة : مدينة /بادية، انتهى إلى نزوح بنوي نحو المدن في صورة تشبه الغزو المنظم، سواء من طرف الشباب الذي دفعته العطالة و «الترانستور» و «الكار» او جذبته أضواء وملاهي المدينة ومشاعلها التافهة المنبعثة من حاجيات مزيفة (من مهن «مسح الأحذية»... إلى الفحابة والقوادة..) أو من طرف أسر دفعها «القرروض الفلاحية» إلى بيع ارضها ليبروقراطية طمحت إلى تكوين رأسمال كبير، فلم تجد أمام تهاة ما بين يديها منه، وغياؤها في ميدان الاستثمارات الصناعية والمالية... وكذا ضغط الرأسمال الاجنبي... الخ سوى التهاة على اراضي الفلاحين الصغار.. في اطار سياسة تقوم الفلاحة (التصديرية أساسا) كاسبقية الاسبقيات. وبذلك تطردهم من اراضيهم وقراهم (وهي تبكي وتشتكي) نحو مدن غير مستعدة لاستقبالهم الا كعاطلين، مكدمين كالحشرات في مدن الصفيح.

هكذا، بدلا من أن «تغزو» المدينة البادية اقتصاديا — اجتماعيا وحضاريا لتطورها وتقديمها... كما كان حال تارنغا الحضاري القديم او تاريخ البورجوازية الأوربية.. فقد حصل العكس، تبت المدن المغربية بصورة شائقة بل وهمجية ومنحطة بشكل فظيع، وكالحاتم حول الاصبع، طوقت كثير من المدن باحياء الصفيح،

واستحالت المدن التقليدية (القديمة أو الاهلية كما قد تسمى) الى خراب تتكسد في المنزل الواحد منه (بني أصلا لمائلة كبيرة من 3 أو 4 أسر) 50 محسين أسرة أحيانا (فاس). ولم تعد المدينة الحقيقية سوى جزر صغيرة متفرقة غالبا (في الضواحي) أنيقة جداً، مضادة جداً، نظيفة جداً.. حتى لا قوت فيها للذباب.. تحرس فيها الكلاب أقلية من «ضيوفها» الثقلاء يضعون رجلا هنا ورجلا هنالك، يحملون الجنسية المغربية حقا اما وطن «هم» الحقيقي وحتى المهم فهو المال ورأسه أنى كان وبالأخص في (المصارف) الأجنبية يبارس أو غيرها.

[اما اليازية فلم تستفد من المدينة سوى عاداتها السيئة جداً: المخدرات بانواعها — الجرائم بمختلف أشكالها...]

ان تطويق المدن من البوادي قد تحقق موضوعيا، وبدون وعي واردة من الجماهير الفلاحية نفسها بل بارادة من شروط الاستعمار الجديد، وهو اليوم يكاد يكون في انتظار إشارة من الوعي ليتحول الى فعل الى قيامة عامة لا تبقى ولا تذر، ونسأل الله السلامة والعافية.

حقا لقد كدنا نصبح مرة أخرى أميين في وطن كما كان حالنا أثناء العهد الاستعماري القديم، أمة المستضعفين من جهة وأمة المستكبرين أصحاب الكرافات والسيجار والويسكي وتبادل النساء، في الجهة المقابلة.